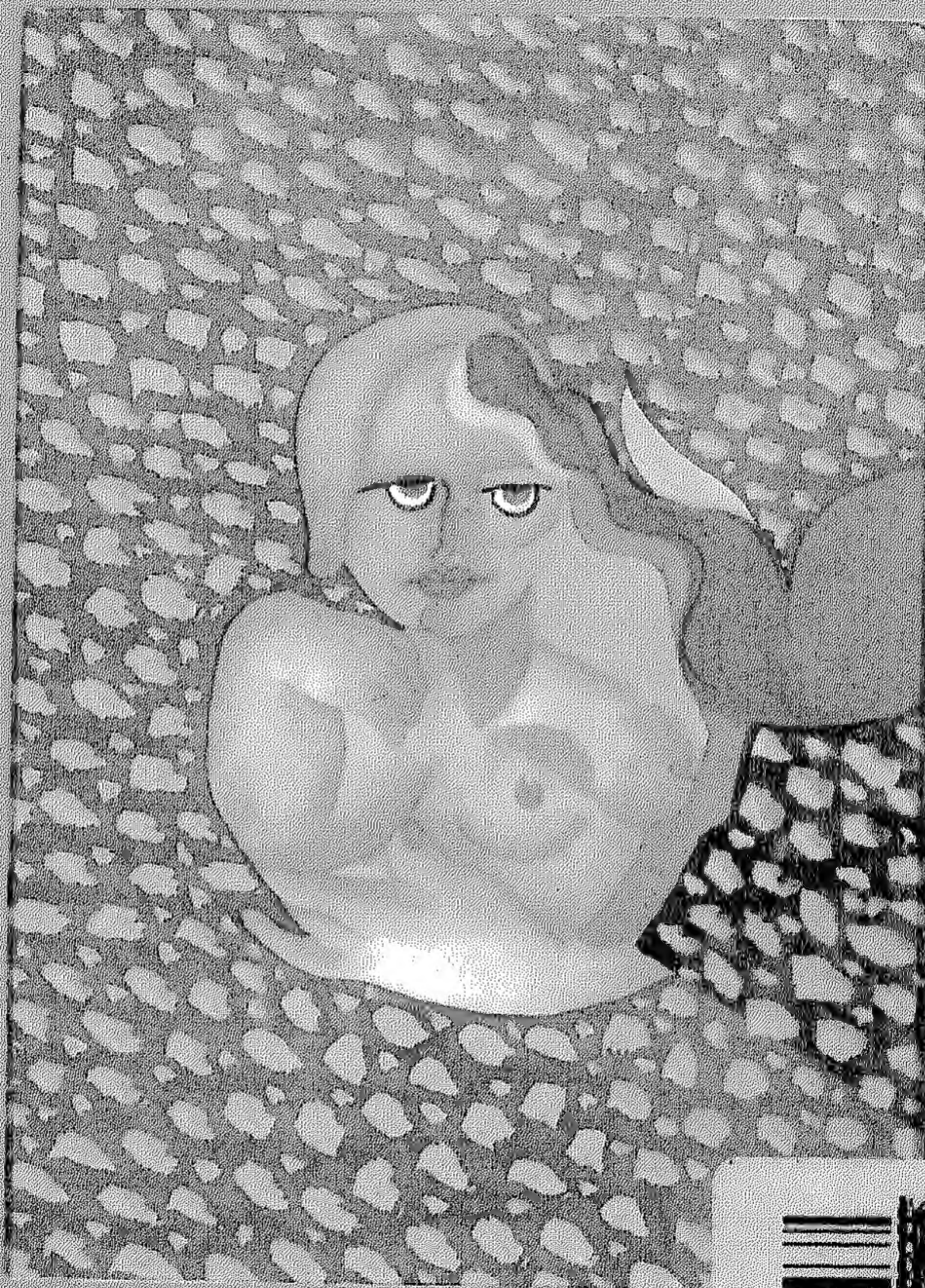


نوال السعداوى

رواية



مكتبة عبد الحليم

في زمن النفط



89

الطبعة الأولى ١٩٩٣

الناشر

مكتبة مديولى

٦ ميدان طلعت حرب - القاهرة

الحب فى زمن النفط

رواية

نوال السعداوى

ذلك اليوم من سبتمبر ظهر الخبر فى الصحف.

نصف سطر أخرجه المطابع متآكل الحروف :

– خرجت امرأة فى إجازة ولم تعد.

كان اختفاء الناس أمرا طبيعيا. كل يوم تطلع الشمس بمثل ماتطلع الصحف. فى الصفحة الداخلية ركن لأخبار الناس. كلمة «الناس» يمكن حذفها أو استبدالها بكلمة أخرى، دون أن يتغير شئ فى الكون. الناس. الشعب. الأمة. الجماهير. كلمات تعنى الكل ولاشئ فى آن واحد.

فى الصفحة الأولى كانت هناك صورة ملونة لصاحب الجلالة. بالحجم الطبيعى. وعنوان كبير :

– الاحتفال بالعيد الميلادى الملكى.

فرك الناس عيونهم. زوايا الجفون متأكلة. قلبوا الصفحة وراء الصفحة. تشاءبوا حتى طقطقت عظام الفكين. وظهر الخبر فى الصفحة الداخلية، لا يكاد يرى بالعين المجردة.

– خرجت امرأة فى إجازة ولم تعد.

لم تكن النساء تخرجن فى إجازة. وإن خرجت واحدة فهى تخرج لقضاء حاجة ضرورية. قبل الخروج لابد من تصريح مكتوب من زوجها، أو مختوم من رئيسها فى العمل.

لم يحدث أن خرجت امرأة ولم تعد. كان يمكن للرجل أن يخرج ولا يعود سبع سنين، ومن بعدها يحق للزوجة أن تتحرر منه.

نشط رجال البوليس فى البحث عنها - خرجت منشورات واعلانات فى الصحف تطلب العثور عليها خية أو ميتة، ومكافأة سخية من صاحب الجلالة الملك.

- ما علاقة صاحب الجلالة باختفاء امرأة من عامة الناس؟

كان معروفا أن لاشئ يمكن أن يحدث فى العالم دون أمر من صاحب الجلالة. مكتوب أو غير مكتوب. لم يكن جلالته يعرف القراءة أو الكتابة. وكان ذلك نوعا من الامتياز فما جدوى القراءة والكتابة؟ كان الانبياء لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، فهل يمكن للملك أن يكون أفضل من الأنبياء؟

وكان هناك أيضا الآلة الكاتبة : وهى تدور بقوة الكهرباء.

وآلة كاتبة جديدة تدور بقوة النفط، وتكتب بجميع اللغات. وراء الآلة الكاتبة كان هناك كرسي من الجلد يدور. من فوقه جلس مندوب البوليس. فوق رأسه تتدلى من الجدار صورة مكبرة لصاحب الجلالة، داخل اطار من الذهب، حواشيه محلاه بحروف مقدسة.

- هل حدث أن خرجت زوجتك فى إجازة من قبل؟

أطبق زوجها شفتيه فى صمت. اتسعت عيناه كمن يصحو من النوم

فجأة. كان مرتديا منامه وعضلات وجهه متهدلة، فرك عينيه بطرف إصبعه
وتثاءب. كان جالسا فوق كرسى من الخشب ثابت فى الأرض.

- لا.

- هل حدث بينكما شجار؟

- لا.

- هل خرجت عن طاعتك فى يوم من الأيام.

- لا.

كان التحقيق يدور فى غرفة مغلقة. لمبة حمراء معلقة فوق الباب.
لا يخرج شئ الى الصحف. تحفظ التقارير داخل ملف سرى له غلاف أسود.
كتب عليه:

- «إمرأة تخرج فى إجازة».

مندوب البوليس كان جالسا فوق الكرسى المتحرك. يدور به فيصبح ظهره
ناحية الجدار وصورة صاحب الجلالة. فى مواجهته كان الكرسى الآخر ثابتا
فى الارض، من فوقه جلس رجل آخر، ليس زوجها، وانما رئيسها فى العمل.

- هل كانت من النساء المشاغبات أو المتمردات على النظام؟

رئيسها فى العمل كان واضعا ساقا فوق ساق، بين شفتيه غليون أسود
يلتوى الى الأمام مثل قرن البقرة. عيناه شاخستان الى أعلى.

- لا . كانت امرأة مطيعة تماما .

- هل يمكن أن تكون قد اختُطفت أو اغتُصبت؟

- لا . كانت امرأة عادية لاتثير الرغبة فى اغتصابها .

- ما معنى ذلك؟

- أعنى كانت امرأة مستسلمة لاتثير شهية أحد .

هز مندوب البوليس رأسه علامه الفهم . استدار بالكرسى فأصبح ظهره ناحية رئيسها . دق بأصابعه فوق الآلة الكاتبة . تسريت رائحة غريبة تشبه الجاز المحروق . مد ذراعه وأدار المروحة . ثم استدار بالكرسى .

- أعتقد أنها هربت؟

- ولماذا تهرب؟

لم يكن أحد يعرف لماذا يمكن لامرأة أن تهرب؟ وإذا هربت فإلى أين تذهب؟ وهل يمكن أن تهرب وحدها؟

- أظن أنها هربت مع رجل آخر؟

- رجل آخر؟!

- نعم .

- لا يمكن . كانت امرأة شريفة تماما ، ولاشئ يشغلها إلا العمل والبحث .

- البحث ؟

- كانت تعمل فى البحوث بإدارة الحفريات.
- الحفريات. مامعنى هذا؟
- الحفريات هى الآثار المكتشفة من حفر الأرض.
- مثل ماذا؟
- تماثيل قديمة للآلهة القدامى مثل أمون، وإخناتون، أو الإلهات القديمات مثل نفرتيتى وسخمت.
- سخمت؟ ما هذا .. ؟
- إلهة الموت القديمة.
- أعوذ بالله !
- وجاء خبر من ناظر إحدى المحطات النائية. شوهدت امرأة تهبط الى المركب. من فوق كتفها تتدلى حقيبة جلدية بحزام طويل تشبه الطالبات أو الباحثات فى الجامعة. كانت امرأة وحيدة تماما بلا رجل. شئ يطل من حقبتها له رأس حديدى مدبب يشبه الأزميل.
- أصبح مندوب البوليس متوترا. ظهرت حبات العرق فوق جبينه. ضغط فوق زر أسود فازدادت سرعة المروحة. كان لها عنق يدور حول نفسه، وهواء الغرفة شبه مخنوق.
- أكانت امرأة طبيعية؟!

فوق الكرسي الخشبي الثابت جلس رجل من علماء النفس. كان فمه يميل الى الاعوجاج ناحية اليسار، والغليون ذو القرن الملتوى يميل ناحية اليمين، عيناه شاخصتان إلى أعلى قليلا فوق الجدار. كانت الصورة داخل الاطار المذهب. نفث الدخان كثيفا في وجه صاحب الجلالة، ثم انتبه في توجس، وأدار رأسه إلى الناحية الأخرى حيث المروحة وأسدل جفنيه.

- لاأظن أنها كانت امرأة طبيعية.

- أتعنى انشغالها بهذا البحث.

- نعم، غالبا مايشير انشغال المرأة بأمور خارج البيت الى مرض نفسى.

- ماذا تعنى؟

- امرأة شابة تنطلق فى عمل بلاجدوى مثل جمع قماثيل قديمة؟! أليس ذلك دليل على المرض أو على الأقل الانحراف؟

- انحراف؟

- هذا الأزميل يكشف كل شئ.

- كيف؟

- المرأة كى تعوض عن رغباتها التى لم يتم اشباعها تستمتع بغرس رأس الأزميل فى الأرض وكأنه عضو الرجل.

انتفض مندوب البوليس فوق الكرسي. دار به حول نفسه عدة دورات

كالمروحة. تصلبت أصابعه فوق الألة الكاتبة وهو يدق كلمة «عضو الرجل». توقف عن الكتابه واستدار بحركة سريعة.

- المسألة تبدو خطيرة.

- أجل ولى عدة مؤلفات فى هذا المرض. فالمرأة منذ طفولتها تبحث عن هذا «العضو» دون جدوى، ومع اليأس تتحول هذه الرغبة الى رغبة أخرى.

- رغبة أخرى؟ مثل ماذا؟

- مثل النظر الى نفسها فى المرآة، كنوع من الحب المهووس للذات.

- أعوذ بالله.

- وقيل المرأة الى العزلة والصمت وأحيانا الرغبة فى السرقة.

- السرقة؟

- سرقة التحف النادرة والتماثيل القديمة، وخاصة تماثيل الإلهات الإناث، فهى تنجذب إلى بنات جنسها دون الجنس الآخر ..

- أعوذ بالله!

- وتراودها فى الوقت ذاته رغبة ملحة فى الاختفاء.

- الاختفاء؟!

- بمعنى آخر انجذاب شديد نحو الانتحار أو الموت.

- يا حفيظ!

- واقع الأمر ان النساء الباحثات عن الحفريات يشعرون بلذة شديدة حين يحفرن الأرض، وينجذبن الى رأس الأزميل اكثر مما تجذبن رأس الإلهة نفرتيتى، ومهما كانت محاولتهن فإنهن تعجزن عن تحويل عيونهن عن رأس الأزميل كأنما هو العضو المنشود ...

- كفى! كفى!

بلغ التوتر بمندوب البوليس أقصاه .. كف تماما عن التنفس. ثم بدأت أنفاسه تلهث. والكرسى يدور به دون توقف. ثبت الكرسى، وأمسك زجاجة «الكوريكتر» وبدأ يمسح كلمة «العضو» من جميع الأوراق. لكن الخبر تسرب الى الصحف رغم اللبنة الحمراء. بدأ الصحفيون يكتبون عن الموضوع بلا حياء. وكادت أخبار المرأة المختفية تحجب الأنظار عن الاحتفالات بعيد صاحب الجلالة.

فى اليوم التالى صدر الأمر الملكى : تحريم الإجازات على النسوة، وإذا خرجت المرأة فى إجازة محظور إيوائها أو التستر عليها.



ذلك الصباح من شهر سبتمبر هبطت امرأة فى ربيع الشباب إلى المركب. كانت تلف شعرها الأسود الغزير فى ضفيرتين طويلتين، تدور ان ثلاث مرات حول رأسها وتلتقيان فوق جبينها فى عقدة كبيرة. جسمها طويل نحيف داخل ثوب واسع الى ماتحت الركبتين. بطل من تحته سروال واسع طويل ينتهى برباط مشدود أعلى القدمين. من فوق كتفها تتدلى حقيبة لها

حزام جلدى طويل. تشد بيدها فوق الحزام، وتمضى فى طريقها بخطوات واسعة، عيناها الى أعلى، تبدو كالموشكة على الانطلاق نحو مراكب الشمس. رمقها ناظر المحطة بفضول طبيعى. عند البوابة رآها قد يدها للحارس بتذكرة السفر. حملق فيها لحظة، ثم ردها اليها، وكانت هى قد انطلقت خارج المحطة. لم يكن فى حركتها شئ يثير الريبة، إلا ذلك الحماس غير المألوف بين النساء، وهى تتطلع نحو الشمس، بعينيهما العاريتين من أى غطاء. وشئ يطل من حقيبتها يشبه رأس أزميل.

أمام المحطة كانت المركبات واقفة كالعادة فى انتظار الركاب وانطلقت المرأة نحو واحدة منها. ركبت بخطوات غير مترددة، واحتلت مقعدا فى المؤخرة.

بقيت المرأة فى المركبة حتى النهاية، حين هبط منها جميع الركاب هبطت هى الأخرى، وسارت على قدميها. بدت معالم الطبيعة مزيجا من الألوان الغريبة، متنافرة ومتداخلة. خضرة العشب، صفرة الصحراء، حمرة الصخور. زرقة السماء. بياض السحب.

واصلت السير بخطواتها الواسعة، تشد بيدها فوق الحزام المعلق فوق كتفها، كأنما تمضى بإرادتها أو بغير إرادتها نحو هدف معين.

ولم تعد هناك قرى أو مساحات من الأرض المزروعة. حقول متناثرة وأشجار شوكية. ثم تغيرت التربة فأصبحت صحراوية نوعا ما ترابها أسود ناعم تشوبه حمرة داكنة، كأنما غرق فى الدم ثم جف تحت الشمس. علق

بقدميها وهى تمشى. بين الحين والحين راحت كتل من أشجار النخيل أو
البلح تلقى بظلالها على الأرض، وظهرت وسط الرمال كأنما بطريق الصدفة
بقعة محددة سوداء.

تحت ظل جدار توقفت المرأة ربما للمرة الأولى منذ هبطت من المركبة.
مسحت وجهها بكم ثوبها لتجفف العرق. راحت تحقق فيما حولها. خلعت
عن كتفها الحزام الجلدى، وفتحت الحقيبة. أمسكت بالأزميل فى يدها
اليمنى. والحقيبة فى يدها اليسرى ثم شرعت فى السير من جديد، نافضة
عن قدميها التراب، خبطت كعبيها فى الأرض عدة خبطات، ولاحت من
بعيد مساحة كبيرة من الماء الأسود تشبه البحيرة الراكدة.

ثم اتسع الأفق وراء جبل منخفض. ظهرت قرية صغيرة بيوتها سوداء من
الطين أو مادة أخرى تشبه الطين. متلاصقة فى كتلة واحدة. فوق السطح
أكوام كالتلال السوداء وبراميل مقلوبة. الأزقة ضيقة مسدودة. بعض البيوت
على هيئة اكواخ من الخشب أو الصفيح. ومساحة كبيرة من الأرض العراء.

فى الأفق كانت هناك قمة جبل، ومن تحتها تمتد القرية تخترقها مواسير
ضخمة كالأنابيب، غارقة فيما يشبه المياه السوداء، وآبار لها فوهات واسعة
يتدفق منها سائل يشبه الزئبق له رائحة الجاز، امتزجت به رائحة البشر،
وشئ أشبه بالسردين المملح أو الفسيخ، وكلاب ميتة فى الطريق، صدمتها
المركبات المسرعة فى الليل.

انحدر الطريق ومعه المرأة. كانت تسير بخطواتها السريعة متجهة نحو

هدفها ، حقيبتها معلقة بالحزام فوق كتفها . أطفال القرية يلعبون فى البركة أمام الجامع . رجال عجائز جلسوا القرفصاء على الأرض العراء . عكفوا على النظر إلى أصابع أقدامهم ، ومن حين إلى حين يرفعون عيونهم الى السماء ويحدقون فى اللاشئ . طابور طويل من النسوة المختفيات تحت العباءات السوداء يسرن بخطوة بطيئة فوق رؤوسهن البراميل .

كفت النسوة عن الحركة ، وهن يرقبن المرأة . لمعت عيونهن من خلال الثقوب الصغيرة . لكن المرأة مضت فى طريقها ، الأزميل فى يدها ولاشئ يعنيه إلا البحث . توقفت لحظة تمسح العرق بكم ثوبها وتحملق حولها . كانت الأنابيب تلتوى وتمتد بلا نهاية ، والطريق ينحدر الى البركة . أخرجت من حقيبتها خريطة صغيرة نظرت فيها طويلا ثم رفعت الى السماء عينين شبه غائمتين . فى تلك اللحظة مرت بها طفلة من القرية . كانت ترتدى العباة السوداء ولاشئ يظهر منها إلا عينان صغيرتان . سألتها عن الطريق لكن الطفلة انتفضت وابتعدت مسرعة .

بدت الحيرة على وجهها ، ونوع من الاضطراب . كان الأفق يتسع وبعض طيور تحلق فى الجو . حركة الأجنحة ومن خلفها زرقة السماء أعادت الى نفسها بعض الثقة . الطريق يبدو أمامها مأمونا ، لكن الأرض تزداد بلولة وتلين تحت قدميها ، والقرية بدت كأنما تغوص إلى أغوار البركة .

من مكانها حيث وقفت حملقت حولها . أى قرية هذى ؟ حركت قدميها

لتواصل السير لكن عاصفة هبت فجأة كادت تقتلعها من الأرض، لولا أنها
ثبتت قدميها، وأمسكت في جدار راح يهتز تحت ثقل جسمها.

أفاقت على أصوات تشبه الغمغمة. رأت الطفلة واقفة من بعيد تتحدث
إلى طفلة أخرى. تقرب كل منهما رأسها ثم تنظران ناحيتها. أرادت أن
تنادى عليهما وتسألهما عن اسم القرية. زعقت بأعلى صوتها. رأتها
تستديران، وأدركت من ظهرهما المقوس أنهما امرأتان عجوزتان.

نظرت إلى الساعة في يدها. كانت الساعة وعشر دقائق. ضربت الأرض
بالأزميل، وخطر لها سؤال. أيمكن حقا أن تعيش الإلهات تحت سطح
الأرض؟ ألا يكون ذلك مجرد خدعة بقصد استدراجها إلى هذا المكان؟

أغمضت عينيها فيما يشبه النوم. رأت الغرفة المربعة الأركان العارية من
الأثاث، والسرير من الخشب يتسع لاثنتين يعلوه غطاء أصفر باهت. بقعة دم
قديمة فوق الغطاء. رف عليه بعض كتب عن الحفريات، وتمثال صغير من
الحجر للإله ذي الثدى الواحد، وصورة الإله إخناتون له ثديان بارزان وردفان
كبيران.

من وراء دخان الغليون يرمقها رئيسها في العمل. كان يؤمن بأن الإله
الذكر يمكن أن يكون له ثدى أو ثديان. لم يكن يؤمن بوجود الإلهات. وإن
وجدت واحدة فهي زوجة الإله وليست إلهة حقيقية.

زميلاتهن وزملاؤهن في القسم كانوا يؤمنون بما يؤمن به رئيسهم. جاءوا
إلى قسم الحفريات عن طريق اليأس. يمطون شفاههم حين ينطقون الكلمة.

«حفريات»، تجذبهم الموميات أكثر مما تجذبهم الكائنات الحية. عيونهم تتجه إلى أسفل كأنما إلى بطن الأرض. تكاد تكون مشيتهم واحدة. العنق يبدو ملتويا والجفن مسدل فوق العين. عظمة الأنف منكسة. الردفان سمينان متهدلان من طول الجلوس وراء المكتب.

رفعت عينيها إلى السماء. رأت النجوم والكواكب ثابتة في مكانها القديم منذ كانت طفلة. خالتها كانت تشير بإصبعها إلى نجم بعيد لاتكاد تراه. هذا هو المريخ، وهذا هو عطارد، والمشتري، زحل. لكن هذه هي ست الكل الزهرة.



تعلقت عيناها بالنجمة. وفجأة بدأت الحركة. انطلقت الزهرة من مكانها وعبرت السماء. ذيلها من خلفها رفيع طويل. ثم بدأت النجوم تتباعد بعضها عن البعض، تجرى هنا وهناك ولها أشكال الحيوانات. كان هناك نجم يشبه الثور، وآخر يشبه الأسد، والحوت، والعقرب ..

الأرض أيضا بدأت تتحرك تحت قدميها. حملقت فيما حولها. كان رجل يمشى من بعيد بظهر محن، رأسه ملفوف بغطاء أبيض.

- أهو زلزال ياعم ؟

- لا، إنه الثور يحرك قرنيه، وينقل الأرض من قرن إلى قرن.

كان صوت الرجل واضحا كأنما يتحدث مباشرة في أذنيها، ومع ذلك بدا

كأنما يأتى من قاع بئر. كان يبتعد فى حركة المشى البطيئة، لاترى منه إلا الظهر المحنى. يختفى شيئاً فشيئاً داخل سحب كالشبورة.

صاحت بأعلى صوتها تنادى عليه، لكن صيحتها كانت تتبدد.

ثم رنت ضحكة مكتومة. إنها الطفلة العجوز واقفة داخل عباءتها. عيناها الصغيرتان تلمعان من داخل الثقبين.

- ليس الثور يا أختى.

- ما هو؟

استدارت الطفلة واختفت داخل غيمة من الغبار كالدخان. فى مكانها وقفت تثبت قدميها فى الأرض. أمسكت حزام الحقيبة وراحت تشد عليه. ليس أمامها إلا الثبات فى مواجهة هذه الحركة المجنونة.

رفعت عينيها الى الأفق. كانت المساحات السوداء تمتد أمامها كالصحراء اللاتهائية، رمالها متحركة لونها أسود والهواء شديد الجفاف. سطح لسانها تشقق وعيناها تبحشان فى الظلمة عن قطرة ماء. لمحت شيئاً يتحرك، حية صغيرة تشبه الحرباء، عيناها تلمع، تزحف فوق بطنها وبشرتها سوداء، حركتها رشيقة، قفزاتها خفيفة مرحة، كأنما تبتهج بقدرتها على تغيير لونها.

تراخت قبضتها حول حزام الحقيبة. ربما لا يكون الثبات هو المطلوب. تركت نفسها للريح. حركة لم يألّفها جسمها أول الأمر. بدا ثقيلاً. ثم أصبح

أقل وزنا، أغمضت عينيها فيما يشبه الاستسلام. إحساس جديد بدأ يتسرب اليها على استحياء. كان الجو حارا. مع كل خطوة يعلق غبار أسود بحذائها. تتوقف لحظة. تخط كعبيها أحدهما فى الآخر. تفك الضفيرتين من حول رأسها. تنفضهما. تخط الواحدة بالأخرى. تتطاير من حولها الذرات السوداء. تلتصق بأنفها وجبهتها كأنما تجذبها رائحة العرق.

جلست القرفصاء دون أن تلامس مؤخرتها الأرض، ولم تشأ أن تلوث ثوبها. فتحت الحقيبة وأخرجت الأزميل. ضربت الأرض عدة ضربات، لكن الرائحة كانت غير محتملة. وضعت المنديل فوق أنفها. عنقها يلتوى إلى أسفل. فى القاع البعيد كانت الأرض تتسع، والظلمة تزداد كثافة، وهى تمشى نحو القاع. من يراها يظن أنها لم تكن تمشى. ارتطمت يدها بجدار من الطين. يشبه جدران البيوت فى القرية. سمعت فى الداخل أصواتا. كانت واقفة تستند بيدها على الجدار. يدها الثانية تقبض على الأزميل، وأنفاسها تلهث.

انفتح باب فى الجدار. أحدث صوتا يشبه صرير الساقية. مفاصل حديدية صدئة أو طقطقة خشب قديم. وظهرت امرأة شابة داخل عباءة سوداء تحمل فوق رأسها برميلا ضخما الحجم، منتفخ البطن. يدها مشققتان. قدمها كبيرتان داخل خف جلدى. كعباها يطلان لونهما أسود. تلف رأسها بمنديل أسود مربوط فوق جبينها على شكل عقدة. حاملة فوق رأسها البرميل

بشكل مائل. مملوء حتى الحافة يوشك على السقوط، دون أن يسقط. تلوى
وتحرك رأسها دون أن تمسكه بيدها، دون أن تسقط منه قطرة واحدة.
كانت المرأة تحملق الى الأزميل فى يدها. لم تر فى حياتها امرأة تحمل
آلة حادة. تراجعت إلى الوراء خطوة.

- إنه أزميل.

- ماذا يا أختى؟

- أحفر به الأرض وأبحث عن الإلهات.

- ماذا ؟

- الإلهة سخمت مثلا.

- سخماط؟!

أصاب المرأة اضطراب. بدأ جسدها ينتفض. لكن البرميل كان ثابتا فى
مكانه، مترعا فوق رأسها رابط الجأش.

- قليل من الماء أرجوكى.

- ماذا؟

- ماء . . . ماء . . .

راحت تصرخ وهى تردد: ماء . . . ماء . . . والمرأة واقفة ترمقها بعينين
متسعتين من خلال الثقبين. كأنما هى ترى قطعة من الغنم قمامى. هبت فى

تلك اللحظة عاصفة جديدة كادت تقتلعها من الأرض، والمرأة واقفة تهز رأسها والبرميل ثابت متربع فوق رأسها.

– مَن أنت؟

رأت الشك في عيني المرأة. أخرجت من حقيبتها بطاقتها الشخصية، الاسم، والجنس، ولون العينين، والمهنة. باحثة في قسم الحفريات. حسنة السير والسلوك. متزوجة. بدون أطفال. تقاريرها السرية لا غبار عليها. سددت اقساط التأمينات والضرائب. ليس عليها ديون، وليس لها سوابق. لم تصدر ضدها أحكام حتى الآن.

حملت المرأة في البطاقة كأنما لا تعرف القراءة. تأملت صورتها المشبوبة بدبوس.

– لماذا لا تسترين وجهك؟ أليس عندك حياء؟!

أعادت اليها البطاقة واستدارت. مضت بخطوة بطيئة مبتعدة على امتداد المنخفض. تمصص بشفتيها وتطرقع بالخف الجلدي. كعباها سودوان يحركان الغبار في الجو. فوق ظهرها نتوء يشبه صنم الجمل. من حولها تجمعت النسوة فوق رؤوسهن البراميل. تقرب كل منهن رأسها من الأخرى. يدور الهمس بصوت كالغمغمة. نهضت واحدة منهن. بدت من بعيد كالطفلة. عادت بعد لحظة ومن حولها عدد من الرجال. يرتدون الجلابب الواسعة. فوق رؤوسهم أغطية بيضاء.

ظلت أصوات النساء منخفضة لاتزيد عن الهمس. ارتفعت أصوات الرجال. كانوا يتكلمون فى نفس واحد. كل منهم يحرك ذراعيه فى الهواء. يضرب الأرض بقدميه. غبار كثيف يتصاعد. ثم توقفت الأصوات كلها فجأة. عم الصمت. لم تسمع فيه إلا نباح كلب من بعيد. استدارت لتمضى فى طريقها. أسرع الخطى تشد بيدها فوق الحزام المعلق على كتفها. لكن الأصوات كانت تتبعها. واستوقفها رجل يلف حول عنقه كوفية سوداء. فوق وجهه التصقت ذرات سوداء كالنمش.

- إنت يا مرّة!

ارتطمت كلمة "مرّة" بأذنيها مثل شفرة زجاج. تصلبت عضلات وجهها. كيف يمكن لرجل أن يستوقفها فى الطريق ويسبها. أدارت له ظهرها ومضت فى طريقها. تبعها وهو يضرب الأرض بقدميه. صوته لا يكف عن ترديد تلك الكلمة النابية.

مد ذراعه الطويلة كالعصا الخشبية وأمسك ذراعها. قرب فمه من أذنها وراح يزعق: يا مرّة! رائحة نفاذة تدفقت من فمه. خليط من اللعاب الأسود يسيل من الزواية بين الشفتين.

- مَن أنتِ؟

- أنا باحثة محترمة و

- من أين أتيتِ؟!

استدارت وأشارت برأسها الى الطريق الذى جاءت منه. بدا مثل سرداب طويل مظلم، طمسته المياه السوداء كالطوفان. أغمضت عينيها ثم فتحتهما.

- خرجت فى إجازة و . . .

- لم نسمع هذا من قبل.

- يمكننى العودة.

- لا يوجد طريق فى هذا الوقت.

- أيمكننى تأجير غرفة حتى الصباح؟

- أنت وحدك؟

هز الرجل رأسه عدة مرات: لا يمكن. ابتعد عنها يضرب الأرض بقدميه. فتحت الحقيبة وأخرجت الخريطة. هل أخطأت المكان؟ انحنى جسمها فوق الأرض. بدت لمن يراها من بعيد أنها مقبلة على النوم. لكنها استغرقت طويلا فى تحديد المكان. عثرت على بقعة حددتها بالقلم. أمسكت الأزميل وحفرت.

تدلت رأسها وهى تحفر فيما يشبه الإغياء. ربما كان المكان صحيحا وقد تكون واحدة من الإلهات مختفية. لكن الظلمة حالكة والذرات السوداء تتراقص أمام عينيها. أزاحت الطين ولمحت شيئا يشبه قرن بقرة. قبل أن تمتد ذراعها سمعت الأصوات من خلفها. طابور من الرجال يطل عليها.

يرتدون الجلايب. رؤوسهم ملفوفة بغطاء ابيض. من خلفهم طابور من النسوة داخل العباات السوداء. أخرجت واحدة من تحت العباة ثديها العارى. أخذت تشد الحلمة السوداء بين إصبعها حتى اندفع من الثقب خرطوم رفيع أسود اللون. ثم أخرجت من تحت العباة طفلا صغيرا، قبض بفكيه الصغيرين على الحلمة وراح يرضع بصوت مسموع.

أصوات الرجال بدأت تنخفض كأصوات النسوة. جلسوا القرفصاء على شكل حلقة. فى الوسط حجر كبير جلس عليه رئيسهم. فى اصبعه الصغير خاتم تلمع من فوق رأسه صورة لصاحب الجلالة. تحوطها اللمبات الملونة. ومكبر للصوت على شكل القمع.

- بمناسبة عيد صاحب الجلالة أمرنا بالصرف.

الصوت هو صوت جلالتة. شفتاه تتحركان فى الصورة. فركوا عيونهم بأصبعهم. زوايا الجفون متأكلة يشوبها الاحمرار. يتبادلون النظرات. يرددون فى نفس واحد، «قادر على كل شئ»، ثم يدب الصمت. يدعك كل منهم زواية عينه. يتأمل الذرات السوداء العالقة بطرف إصبعه. يمسحه فى جلبابه، ثم يدعك عينه الثانية.

غمغم صوت صاحب الجلالة من خلال القمع. كلماته متأكلة الحروف، لسانه معوج، ولم يفهم أحد ماذا يقول. هز رئيسهم رأسه علامة الإعجاب. هزوا رؤوسهم. ثم توقف رأسه عن الاهتزاز. توقفت رؤوسهم. نهض من فوق

مقعدة، فنهضوا. اختفى فى عتمه الليل واختفوا من خلفه، ومن خلفهم النسوة.

لم يبق إلا صورة صاحب الجلالة، معلقة فى السماء بلا أعمدة، ومن فوقها البوق، ورجل واحد يكنس الأرض، اقترب منها بخطوات بطيئة. كان هو الرجل ذو النمش، والكوفية السوداء. تمخط بصوت عال.

- لابد من إخلاء المكان.

- وأين أبيت؟

- تعالى معى.

قادها الى الطريق المنحدر. يسبقها بخطوة أو أكثر. كلما أسرعت لتمشى الى جواره ترمقها عيناه فتبطئ السير لتصبح فى المؤخرة. هبط المزلقان يلقي بنصفه الأعلى الى الأمام، ويده تهرش ظهره. .

كانت تتبعه فوق كتفها حزام الحقيبة، تمسكه بأصابعها كأنما يحميها من السقوط. فى يدها الثانية الأزميل، ينتفض بانتفاضة جسمها ويبدو فى الظلمة كأنما هو ينتفض وحده.

انحدر الطريق وازدادت الأرض سيولة. الرائحة النفاذة تشتد. قدماها تغوصان حتى الركبتين. شمر الرجل جلبابه وربطه حول وسطه. ثم قفز داخل مركب. قفزت وراءه فأهتز المركب. كادت تسقط لولا حركة من ذراعها استعادت بها توازنها.

بدا لها المشهد طبيعيا، لولا الرائحة النفاذة، والذرات السوداء المتطايرة
تدخل أنفها وأذنيها، وتلتصق بزوايا جفونها. الظلمة تتراكم أمام عينيها
كالتلال، والصمت. إلا صوت المجذاف يخطط في بحر أسود لانهاثي.
بدأ الرجل يدعك عينيه وهو يغنى.

- يا واهب الحياة

- يا قابض الروح

- إرحمنا من الطوفان

- يا مفرج الكرب

عيناه وهو يغنى شاخستان نحو الأفق. يحك زاوية عينه بطرف أصبعه
ثم يقرب إصبعه من عينه. يتأمله طويلا قبل أن يمسحه في جلبابه. ثم بدأ
يهرش ظهره وتحت الإبط وما بين الفخذين. صوت غنائه يسرى في الليل
حزينا، إلا في لحظات متقطعة، حين ينتفض كأنما بلذة مفاجئة.

أوقف المركب عند كتلة من الظلام تشبه الجدار. انحنى باتجاه الظلمة.
تنحنع بصوت عال معلنا عن مجيئه. لم يسمع إلا نباح كلب. صاح وهو يدق
على الباب.

- إفتح يا أخى.

من وراء الباب جاءت نحنة رجل آخر. ومن أعماق الظلمة انفتح الباب.

اندفعت الرائحة تؤلم غشاء الأنف. ظهرت شعلة صغيرة تهتز في يد كبيرة،
مشعرة وصوت متحشرج يخرج من الحلق.

- ادخلي يا مَرَّة.

لم تعد الكلمة تؤلمها. في أذنيها ألم أشد. الذرات الدقيقة تتراكم داخل
كل أذن. تتجمد مثل حصوة تحتك بالغشاء أو العصب.

ارتفع صوته قليلا.

- ادخلي يا مَرَّة.

واقفه في مكانها لا شئ فيها يتحرك إلا عنقها. يلتوى الى أعلى نحو
السما، تبحث عن الهواء، من فوق كتفها الحزام تشده كأنما تشد ذاكرتها
من الظلمة. كيف جاءت الى هنا؟

ارتفع صوته أكثر.

- ألا تسمعين الكلام؟

حركت قدميها ودخلت. اجتازت عتبه منخفضة مألوفة الشكل. لكن
البيت كان يهتز تحت قدميها كأنما هو مركب. انغلق الباب من خلفها
فاستدارت. لم يكن الرجل ذو النمش الأسود هناك، وسمعت صوت المجذاف
يتحرك مبتعدا. انخرط الرجل في سعال متقطع ثم تمخط بصوت عال.
تراجعت الى الوراء خطوة. بدت في فزعها كأنما ترتد الى الطفولة، وانطلقت
من فمها صرخة، والضوء شاحب لا تكاد ترى شيئا. دعتك بطرف اصبعها

عينها. الغرفة عارية من الأثاث والمقعد ثابت في الأرض. ساورها الشك.
ألم تغادر قط مكانها ؟
- إخلعى ملابسك.

لم يعد صوته غريبا على أذنيها. صوت الريح يضرب النافذة. خيوط من
السائل الأسود تزحف من تحت عقب الباب. قطرات سوداء كالمطر تتساقط
من السقف.

لم تكن في حقيقة الأمر نافذة. مجرد إلواح من الخشب. والأرض لم تكن
أرضا، وإنما هي الألواح تثن تحت قدميها مثل القسط المريضة، تند عنها
بلولة كالعرق يلتصق بكعب حذائها، أو بطن قدميها إذا خلعت الحذاء.

- الرائحة غير محتملة؟

وضعت المنديل فوق أنفها وأغمضت عينيها. صوته متحشرج بعيد، كأنما
يأتى من العالم الآخر. جالس فوق مقعده الخشبي. لا ترى منه إلا قدميه
وركبتيه داخل المنامة. نصفه الأعلى يختفى وراء الصحيفة. حروف سوداء
من الرصاص، السطر وراء السطر، مصبوبة في خطوط أفقية دقيقة.

- مطلوب باحثين بقسم الحفريات.



دقت الطلب على الآلة الكاتبة. ملأت خانة الاسم والسن، والديانة وفي
خانة الجنس دقت أربعة حروف « أنثى ». رمقها رئيس القسم بعيون متسعة.

- هذا القسم لا يقبل إلا الذكور، فالعمل غير ملائم .. أعنى حفر الأرض..

- كانت خالتي تحفر الأرض، وأمي كانت أيضا تحفر الأرض، وتزرع و...

- الحفريات شئ آخر، أعنى البحث عن الآلهة فى بطن الارض.

- الآلهة فى السماء. أليس كذلك ؟

- لكن هناك آلهة أخرى، ألم تقرأى شيئا عن الحفريات؟!

انتبهت الى شئ يزحف تحت قدمها. اصبع ناعم طويل يشبه ذيل الثعبان. يلتوى وينثنى ويحفر لنفسه طريقا هابطا من السقف. سر سوب من السائل الأسود. تجمعت حوله جيوش من النمل والأبراص والسحالي، وصراصير تشبه الخنافس لها أجنحة ترفرف فيما يشبه المرح.

سمعت صوته من وراء الصحيفة. كان يكلم نفسه، أو يقرأ أحد المانشيتات بصوت مسموع. دبت بعض الحركة فى الغرفة الغارقة فى الظلمة. أشاعت بعض البهجة تلك الأجنحة الصغيرة، ترفرف حول ذؤابة الضوء. مددت ساقها فوق مقعد منخفض. قدماها متورمتان من طول السبر. حقيبتها فوق كتفها تتدلى من الحزام. والأزميل داخل الحقيبة بطبيعة الحال. عينها تحملقان حولها تستكشف المكان. فوق الجدار الأسود رأتها مرة أخرى. السحلية السوداء أو الحرياء. رمقتها بعينين صغيرتين. أصبحت بينهما ألفة.

تنحنح الرجل بصوت مسموع. اختفت السحلية داخل الشق. لم تعرف كيف رآها من خلف الصحيفة. نصفه الأعلى كان مختفيا تماما. لا يظهر منه إلا قدميه وركبتيه داخل المنامة. ربما هي قرون الاستشعار، يتوجس لأي صداقة قد تنشأ بينها وبين كائن آخر.

- جهزى العشاء.

قالها بلهجة من أستاذ امرأة للطهى. لم تكن هناك خانة فى الطلب الذى دقته على الآلة. فى خانة العمل كتبت باحثة عن الإلهات.

- أنا جائع!

صاح بصوت عال، وهى جالسة ممدودة الساقين. قدماها ملتهبتان تسليخ عنهما الجلد، تكسوه طبقة سوداء.

فى المطبخ كانت النافذة مسدودة. ألواح خشبية مدقوقة بالمسامير، ورق الصحف مضغوط بين الشقوق، مكوم وراء الباب يمنع دخول السرسوب من تحت العقب، وصنبور الماء مسدود بورق الصحف.

وهى واقفة أمام الحوض أحست بالرجل خلفها. أنفاسه فوق مؤخرة عنقها. لم تعرف كيف تشعل الموقد. ناولها شئ يشبه المسدس. تضغط عليه بالإبهام فيطرقع والشرارة تنطلق. ضحكت كالطفلة.

أشياء صغيرة كانت تضحكها. تتبدد الظلمة ويلمع فى الأفق ضوء.

رأته يلوى عنقه الى أعلى بكبرياء. تابعت بعينيها نظرتة حتى السقف. كان السرسوب الأسود يزحف.

- ما هذا؟

- ألا تعرفين ما هذا؟

- لا.

- إنه النفط.

- أيتسرب النفط من السقف؟!

- بالطبع، حين يرتفع المنسوب فى الأرض أو يهطل من السماء.

- أتمطره السماء أيضا؟

- تُعطى السماء من تشاء بغير حساب.

فى المدرسة وهى طفلة عرفت أن النفط لا يوجد إلا فى بطن الأرض. عبر ملايين السنين يتوالد من الأجسام الميتة، تتحلل بسبب الحرارة، وكائنات صغيرة اسمها البكتريا، وذرات التراب والرمل، وغبار المعادن. كل ذلك يتحلل إلى قطرات دقيقة تشرب الماء، تُختزن فى طبقات كالأسفنج، تنساب إليها الرمال وصخور جيرية متشققة، تُحبس بين حبيباتها، وتخزنه فى الشقوق داخل طبقات عازلة تحول دون تسربه الى أعلى، وطبقة من المياه فى جوف الأرض، يطفو فوقها، بحول دون تسربه إلى أسفل. كالمصيدة تنغلق

عليه الأبواب من جميع الجهات تمنعه من الخروج الى سطح الأرض، الا اذا اهتزت بفعل زلزال أو بركان أو قنبلة تسقط في الحرب.

أطبقت شفتيها في صمت. كان عنقه لايزال ملوياً إلى أعلى يخاطب السماء كأنما هي واحدة من الإلهات. رفعت رأسها فارتطم به من الخلف. كان واقفا وراءها، يحتك بها دونما حياء. إنكمشت داخل جسدها في حرج. لم يكن في عقد العمل خانة لهذه الأشياء. أشاع انكماشها في نفسه الثقة، فالتصق بها أكثر. أنفاسه تلمع عنقها من المؤخرة. ذراعه امتدت ودارت حول صدرها، ثم استقرت يده فوق النهد الأيسر. رأت أظافره سوداء تفوح منها رائحة النفط.

– ألا تأخذ حماما أولا؟

– ماذا؟

بدا عليه الغضب. لم يحدث من قبل أن بلغت امرأة هذه الجرأة. كادت يده ترتفع وتسقط فوق وجهها. ربما ارتفعت فعلا. ثم تراجع الى الخلف. أدركه الإعياء فجأة. أشار الى زجاجة صغيرة فوق رف خشبي. فتح فمه عن آخره حتى رأت اللهاة الحمراء تنتفض في حلقه.

– أربع نقط.

سكبت في حلقه أربعة قطرات. أغمض عينيه طويلا. ثم فتحهما. لعق شفته السفلى بطرف لسانه.

- أهو ماء؟

- لا ، نوع مقطر من النفط يروى أكثر من الماء، ويظهر الأمعاء. افتحى فمك.

سكب فى فمها القطرة الأولى ثم الثانية. أرادت القطرة الثالثة والرابعة. تشبثت بالزجاجة تقبض عليها بأصابعها الخمس، لكنه شدها منها وخبأها.

- لك نقطتان فقط حسب القانون.

أطرقت برأسها. إرهاب أشبه بالاستغراق. كأنما سمعت عن هذا القانون من قبل. وسقطت فى النوم، رأت نفسها تستحم فى مياه دافئة. السماء زرقاء صافية، والحقول خضراء. فى أنفها رائحة الزرع. تجلس فوق الجسر عند الغروب تنتظر ظهور الأضواء.

فتحت عينيها على شئ يحرق تحت الجفن. كانت الغرفة تغرق فى الظلمة. ضوء خافت ينبعث من ذؤابة متهالكة. وهو جالس فى مكانه وراء الصحيفة المفتوحة. قدماء حافيتان فوق البلاط.

أخفت حقيبتها تحت أبطها. سارت تجر قدميها الى المطبخ. عادت وفى يدها كوب من الشاي الأسود. مد ذراعه وأمسك الكوب دون أن ينطق، وراح فيما يشبه النعاس وهو جالس. كانت الصحيفة متكورة فوق الأرض. فتحتها قلب الصفحة وراء الصفحة.

- امرأة خرجت فى إجازة ولم تعد، محظور إيوائها أو التستر عليها حسب القانون.

علقت الحقيبة فوق كتفها بلا صوت. شدت الباب بحذر وخرجت. صوت الريح يعوى كصوت الذئب الجائعة. قدماها تغوصان مع كل خطوة. لاتعرف السائل من اليابس. تتسند على الجدران كما كانت تفعل وهى طفلة، قبل أن تتعلم المشى، خالتها تمسك يدها.

- تاتا خطى العتبة.

- هيل هوب هيل.

- يا ستنا الطاهرة.

وهى طفلة لم تعرف من هى الست الطاهرة. ربما كانت مريم العذراء. فى ظلمة الليل كانت روحها ترفرف أحيانا فوق أسطح القرية. فيعود البصر الى بعض العيون العمياء، وتدب الحركة فى بعض السيقان الكسيحة. أو ربما كانت هى السيدة زينب. الوحيدة من الأنبياء القادرة على شفاء خالتها من الوجع.

- ماذا تقولين؟

- سأكون نبية . . لأشفى الناس من الأمراض.

- هل فقدت عقلك؟ لا يوجد بين الأنبياء إمراة واحدة!

صوته كان يرن فى أذنيها واضحا. يبدد أحلامها. صوت رجل. ربما هو

زوجها أو رئيسها فى العمل. فى امتحان الدخول كان جالساً وراء مكتبه.
بين شفثيه الغليون الأسود يهتز وهو يسألها السؤال وراء السؤال:

– ماذا تعرفين عن «نمو» إلهة المياه الأولى؟

– نمو؟

– و«إنانا» إلهة الطبيعة والخصب؟

– إنانا؟

– و«سخت» إلهة الموت؟

لم تكن تعرف أن هناك شئ اسمه إلهات. الأنبياء جميعهم رجال وليس
بينهم امرأة واحدة. كيف إذن يكون بين الآلهة إناث؟ وأيها أعلى درجة
النبي أو الإله؟ أما إله الموت فقد كان اسمه عزرائيل بالذكر وليس سخت
بالمؤنث.

تحت ضوء الللمبة كانت تقرأ. وهو جالس فى مكانه المعتاد. يختفى
نصفه الأعلى وراء الصحيفة . .

– أتقرئين؟

لم يكن يظهر منه إلا القدمين والساقين. ركبتاه بارزتان مدببتان من
تحت المنامة. أتكون عينيه فى ركبتيه؟ ما أن تفتح الكتاب وتقرأ حتى
تراهما تهتزان، تتوجسان؟

– إتركى الكتاب.

- الامتحان غدا ولم أكمل القراءة، و

- أنا جعان.

نظرت للساعة فى يدها. التاسعة وعشردقائق. جهزت له الأكل منذ ساعة واحدة، كيف يجوع بهذه السرعة؟ وإن جاع فالوعاء فوق الموقد. والمطبخ على بعد ثلاثة خطوات. رآته جالسا يهز ركبتيه، يحرك قدميه فى الهواء. يطرق أصابعه.

- عطشان.

لم يكن يكف عن الطلب. كالطفل، لا يستطيع أن يُطعم نفسه، ولا يسقى نفسه. ما أن يراها تفتح الكتاب حتى يصيح. كأنما الكتاب رجل آخر يأخذها منه.

تخفى الكتاب تحت الوسادة. تنتظر حتى ينام، ويغرق فى النوم. يتصاعد الشخير بذلك الإيقاع المنتظم. تفتح الكتاب وتقرأ. كانت هناك وصية من الإله الأم إلى ابنتها:

- لاتنسى أمك.

- إحملها كما حملتك.

- حملتك فى بطنها طول السنة.

- أعطتك حياتها وماتت.

فى هدأة الليل يسرى الصوت فى أذنيها. لم تسمع صوت أمها إلا وهى

جنين فى الرحم. تراه يتقلب فى نومه كأنما يسمع الصوت. تنتصب شعيراته فى توجس. يفتح عينيه فجأة فتخفى الكتاب. يتقلب على الجنب الآخر ويعاود النوم. ترقد فى مكانها تنتظر. لاتعرف إن كان نائما أو متظاهرا بالنوم. أنفاسه لم ترتفع بعد، وإيقاع الشخير لم ينتظم.

- صاحبة؟

تغمض عينيه وتطبق شفتيها. تترك أنفاسها تعلو وتهبط، ثم تسقط فى النوم. يتهاوى جسدها إلى أسفل كأنما سقط فى بئر.



كان كل شئ يغدو مبلا حتى أغطية الفراش. بلولة سوداء نفاذة الرائحة. رآته يجثو على يديه وقدمية. ثم مد ذراعه نحوها. راح يحلق فى وجهها دون أن يغير وضعه. شفتاه منفرجتان على نحو غير طبيعى. يكشف عن الشعر فوق صدره.

أدركت أنه سيمضى قدما فى تلك اللعبة. فانقبضت عضلاتها وأحكمت إغلاق جسدها. أطبقت شفتيها وتظاهرت بالنوم.

اشتد تدفق السائل الأسود بصوت كالشلال. ارتفع حتى ركبتيه وهو جالس. نهض بجسد ثقيل يتشعب. يدعك عينيه. تمخط فى الحوض. أحضر من المطبخ مغرفة الأكل. بدأ يغرف من الأرض. ينحنى بجذعه الى أسفل، يملأ المغرفة، يرفعها بذراعيه، ومعهما نصفه الأعلى، ويفرغها فى البرميل. يملأ البرميل وراء البرميل دون توقف.

- المنسوب يرتفع بشكل مفزع!

- خير من عند الله.

- إني أختق.

- لا تقف هكذا ، اهبطى بركبتيك.

جعلها تبرك كالجمل. عصر خرقة بالية، ثم لفها على شكل دائرة. وضعها فوق رأسها. ثبتها بدقات متتابة، كأنما يدق مسمارا فى جدار. إنثنى بنصفه الأعلى مثبتا قدميه فى الأرض. رفع اليرميل بذراعيه الإثنتين ثم وضعه فوق رأسها. إلتوى عنقها تحت الثقل، وكاد اليرميل يسقط. هبت الريح فأمالت اليرميل إلى جانب. تركته مائلا وحركت قدميها، القدم وراء القدم. حركة السير العادية، الطريق أمامها كأنما مشت فيه من قبل. هذا الطابور من النسوة تعرفه، وهى واحدة من الطابور. يسرن بخطوة بطيئة ثابتة كالزمن. تزداد العاصفة والشلال يهدر. أجسادهن تهتز كالقشة فى مهب الريح. كل شئ يهتز، إلا اليرميل فوق الرأس، يظل ثابتا فى مكانه، رابط الجأش.

كانت تعود بجسد منهاك. تتكور فوق الأرض. ركبتها تحت ذقنها. حقيبتها تحت رأسها. حلقها جاف ولسانها تشقق. تفتح عينيها فى الظلمة. تبحث عن الزجاجة. لم تكن فى أى مكان. تعود الى النوم، ثم تصحو على الصوت. كان قد اصطاد حيوانا يشبه الخروف أو الماعزة. ذبحها بالسكين. تدفق الدم كالنافورة. العينان تنظران نحوها. تستنجدان بها، وصوته يزار.

- هيا، إطبخي!

- أنا لا آكل اللحم.

- ليس من الضروري أن تأكله، عليك أن تطبخيه!

- لن أطبخه!

مد ذراعه الطويل بالسكين. رمقت النصل اللامع، فالتوى عنقها الى أسفل. انكمشت داخل جسدها تخفى رقبتها بيديها الإثنتين.

جرت جسدا ثقيلا الى المطبخ، مسحت الدم حول العنق، أشعلت الموقد ووضعت الوعاء. تصاعد البخار حتى السقف. أحست به واقفا خلفها. يتشمم رائحة اللحم. يحتك بها من الورا. غريزة الأكل عنده كانت تصحو وتوقظ معها الغرائز الأخرى. تركت جسدها له وراحت فى النوم. بينما هى نائمة شعرت بألم. يشبه وخز الإبرة. كان ضميرها يؤنبها. كيف أعطيته نفسى مقابل وجبة عشاء؟

فى الصباح هب تيار عنيف. تناهى اليها على متن الريح صوت يشبه المجذاف. أرهفت السمع وقلبها يدق. سمعت صوت امرأة يشبه صوت خالتها.

تبدد الصوت حين حرك الرجل جفونه. شدها الى أعلى وظهر الننى الأسرد محدقا فيها. أمسك خرقة بالية. ربما هى سروالها. أخذ يلويه بين

يديه كأنما يعصره. جعله على شكل حزام وضعه فوق رأسها. جعلها تثنى جذعها، ثم رفع اليرميل بيد واحدة.

- إنه ثقيل جدا! سوف يحطم عنقي.

صوتها يرتد اليها، كأنما هي تكلم نفسها. سارت به فى الطريق نحو الشركة. كالنائمة فى حلم. ربما لهذا السبب كان جسمها قويا، استطاعت أن تحمله دون عناء، بل أحست بنوع من الخفة كما يحدث فى الأحلام. لكن قلبها كان ثقيلا. هذا العمل ترفضه بقرة تحترم نفسها. ربما لا يقبله إلا نوع منقرض من الحمير. واليرميل أيضا من النوع المنقرض له أذنان كبيرتان، ووطن منتفخ بالحبل كالإله ذى الشدى الواحد.

ترددت بعض الأصوات من بعيد. صرخات خافتة ذات ايقاع واحد. أعقبها صوت كالغمغمة، وضحكات مكتومة ثم الصمت.

بدا لها أنها تمشى دون أن تتقدم خطوة واحدة. واقفة حيث كانت. لايفصلها عن عتبة الدار إلا خطوتين. كان الباب مفتوحا وهو جالس فى مقعده وراء الصحيفة.

- العاصفة مستمرة.

- يمكنك الانتظار.

- فى هذا الوضع؟

- حين يزحف النفط فلا شئ يقف فى طريقه، وعليك التعامل معه نهارا
حين تسطع الشمس ويجف.

- وهذا البرميل يسخن رأسى!

- لابد من الانتظار لابد!

قال «لابد» وهو ينظر إلى أعلى. دارت سحابة رمادية عند الخط الفاصل
بين السماء والأرض.

- النفط يشرب بخار الماء فى الجو، وحين تتبدد السحب بواسطة الشمس
يحدث الجفاف.

- الجفاف؟

- نعم، وينحسر السائل متحولا الى صلب، ويمكنك السير بسهولة دون
أن تغوص قدميك، ويمكن أيضا أن تسير فوقه الدبابات.

حين قال «الدبابات» كست عينيه لمعه، تشبه الدموع. ربما أخذه إلى
الحرب. ستصبح مساحته فوق الفراش خالية، وتكف عن الطبخ. شدت
عضلات عنقها تحت ثقل البرميل. ضربت الأرض بقدميها.

كان الرجل منشغلا بالتطلع الى الطريق. ظهرت بشائر الموكب الكبير.
صف من حملة الطبول يدقون النشيد الوطنى. سرب من الدراجات البخارية،
والألعاب النارية. موظفو البلاط داخل سيارات سوداء طويلة من خلفهم
الصحفيون. دبابة ضخمة يطل منها صاحب الجلالة يلوح بيديه كأنما

للجماهير. إلى جواره رئيس الشركة يرفع القبعة علامة التحية.
كان الطريق خاليا أمامها وهي تسير حين لسعتها العصا الخيزران فوق
ردفيها.

- إنحنى بسرعة!

لم تكن تعرف بعد كيف تؤدي التحية. انحنى الى الأمام وثنت جذعها
الى الخلف. أصبحت مثل جمل يبرك. بدأ الرجل يعلمها الأنشودة. ترددت
نغمة صوته هادئة شبه موسيقية. مع كل مقطع يجفف عرقه بكم جلبابه.

- أهى أنشودة وطنية؟

- نعم، فنحن هنا نتبع المبدأ: أنا أحب وطنى.

- أهو وطنك؟

- أمى دفنت هنا، وحيث تدفن الأم يكون الوطن.

قال «الوطن» وأطرق الى الأرض. جعل جفونه تنسدل فوق عينه كأنما
يخفى الدموع. لم يكن يذكر أمه إلا حين يتهدده الموت. بين يديه ورقة
صغيرة مختومة بوجه صاحب الجلالة، والاستدعاء الفورى.

رقدت مفتوحة العينين ترهف السمع. أحست به يدخل الى جوارها فى
الفراش. أعطى وجهه للحائط. مدت ذراعها وربت على عنقه من الخلف.

- لا تذهب فليس لك إلا مقبرة أمك.

- مَنْ لَا يَذْهَبُ يَقْتُلُ.

- وَمَنْ يَذْهَبُ يَقْتُلُ.

- لَا مَفْرَ مِنْ الْمَوْتِ.

- إِذْنُ مَوْتٍ بِإِرَادَتِنَا.

قالتها بلا صوت وهي تخرج من الفراش. علقت حقيبتها فوق كتفها وأمسكت الأزميل. سارت بخطوة سريعة تطبق عينيها في مواجهة العاصفة. قدماها تغوصان في المياه السوداء حتى الركبتين. بدت الحركة مستحيلة. توقفت تشق بعينيها الظلمة وأذناها مرهفتان. كانت الأصوات خافتة أول الأمر. مثل حفيف الهواء أو هفهة الجلابيب. تأتي من أسفل المنحدر حيث بيوت القرية، وتعلو بالتدريج. تشبه إيقاع الدفوف ودقات الطبل. رأت امرأة تدور حول نفسها فوق قدم واحدة. من حولها النسوة على شكل دائرة. نافشات شعورهن. أسنانهم تصطك، باسطات أذرعهن. يخبطن الأرض بأقدامهن. يدرن حول أنفسهم مع دورة الأرض. ينشدن في نفس واحد.

- يَاسْتَنَّا الطَّاهِرَةَ.

- خَفِّىْ عَنَا الْأَثْقَالُ.

المرأة في الوسط طويلة، رأسها مربوط بمنديل أسود. تشبه خالتها، تدب الأرض بقدميها. ترفع عينيها إلى السماء كأنما تناجي الإلهة الأم. ينتفض جسمها مع كل دورة. تزداد حركتها سرعة وخفة. وفي قمة الانتفاضة الأخيرة

يخف جسمها كأنما يتلاشى. يتوقف الزمن ويدب الصمت. ثم تشع الحركة من جديد. تفيض نحو المحيط. وأجساد النسوة تنتفض.

- يا ستنا الطاهرة.

- نجينا من الطوفان.

كأنما هي أنشودة قديمة كانت تغنيها البنات في المدرسة. انفرجت شفتها وبدأت تهمس بالأغنية. لكن الكلمات تجمدت فوق شفتيها، وانشقت الظلمت عن كشافات الضوء. أغمضت عينيها ولم تسمع إلا نباح كلاب، وعجلات من حديد تدك الأرض. اختفت النسوة يخفين شعورهن تحت المناديل السوداء. لم تبق إلا المرأة الطويلة التي كانت في الوسط. حوطها الرجال وحملوها الى العربة. صرخة واحدة ثم دب الصمت.

لم تعرف كيف عادت الى الدار. جفونها كانت ملتصقة. تدعك زواياها بطرف إصبعها. ترى الذرات السوداء كالضباب، ومن حولها يتدفق الشلال. الرائحة النفاذة في أنفها تعيدها الى الواقع. كل شئ يبدو كالحلم. الحركة الوحيدة المؤكدة هي حركة النفط. حركة غريبة كأنما هي النقيض لأي حركة أخرى.

كان الرجل قد عاد من الحرب بذراع واحدة. في الصباح خرج يملأ البراميل. ذراعه حين يرفعها تبدو رفيعة ناعلة. كأنما فقدت نصف وزنها. تهتز تحت الريح. ترتفع وتهبط في حركة لانتهائية. كمن ينزح الماء من البحر.

- عبث ! عبث !

قالت بصوت غير مسموع، وانشنى عنقها تحت الثقل. حركة ذراعه وهو ينزح النفط تشبه حركة عنقها وهى تحمل البرميل. توقفت فى مكانها كالحصان الجامح. ثبتت قدميها فى الأرض. لكن التوقف بدا مستحيلا. كان النفط يتدفق وله شكل السائل. يمكن للأجسام الخفيفة أن تطفو عليه. إذا خف جسمها يمكنها السباحة. لكنها لم تتعلم كيف تطفو فوق الماء. قبل أن تنزل البحر كان عليها أن تخلع ملابسها. ولم يكن للنسوة أن يخلعن الملابس.

أغمضت عينيها دون أن تعرف الوقت. نظرت الى الساعة فى يدها وجفونها مغلقة. ثم تذكرت أنه لايمكن أن تعرف الزمن دون أن تفتح عينيها. شدت جفونها فانفتحت نصف عين. كانت الساعة الخامسة وعشر دقائق. فى الأفق شعاع خافت لم تعرف إن كان الفجر أو الغروب.

بدأت فى النهوض من الفراش. قبل أن تتحرك أرادت أن تتأكد أن الرجل غارق فى النوم. راحت تنقل القدم وراء القدم بلا صوت. انقلب الرجل على الجانب الآخر وغاب فى النوم. تأملته طويلا. متكور حول نفسه مثل الطفل اليتيم. مستسلم للنوم فيما يشبه اليأس. ثنت جذعها الى الأمام كأنما ستطبع فوق جبينه قبلة وداع. ماذا يقول عنها حين يصحو فلا يجدها؟ ضميرها لايزال حيا أو هكنا تصورت. لن تسبب لها قبلة الوداع أى أذى على أى حال.

فتحت الباب وخرجت. تقدمت بضع خطوات وبدأت الأرض تلين. قدماها

تغوصان حتى الركبتين. فجحت في إخراج ساقها اليمنى ثم اليسرى. ثم عادت أدراجها تلهث.

كان الرجل جالسا مطرقا فيما يشبه الحزن. امتلأت عيناها بحنان له شكل الدموع.

- حاولت الهرب لكنى لا أستطيع الحركة.

ظل الرجل صامتا لاشئ فيه يتحرك.

- لن أستطيع البقاء هنا!

تصلبت واقفة وصوتها اختنق. اكتسب صوت الرجل وإطراقه رأسه معنى مخيفا. هل ارتبط مصيرها بمصيره الى الأبد؟

كانت الشمس قد ارتفعت في السماء. تلتهب أشعتها بلون أحمر. اشتعلت بعض أطراف البركة بالنار. تصاعد الدخان يحجب السماء وقرص الشمس. رفع رأسه وهو يفرك عينيه.

- هذا الدخان نعمة من الله فهو يخفف الحرارة.

لم يعد صوته يثير في جسدها موجات الغضب. ارتسم فوق وجهها تعبير يائس. كانت واقفة حافية القدمين رأسها يتدلى فوق صدرها. عظام جسمها تهدلت في استسلام وحزام الحقيبة يتدلى فوق كتفها.

- نعم، المقاومة لا معنى لها.

صوتها متهالك النبرة. تكاد لاتسمعه. ولم يكن للرجل أيضا أن

يسمعهـا . كان مطرقا برأسهـ ، وفى إطراقته شئ إنسانىـ . عاطفة ما تربطها بهـ . ليست هى الحب عن يقينـ .

انزلت قدميه فجأة وسقط فوق وجههـ . ساعدته فى النهوض تنفض الغبار عنهـ ، لكنه دفعها بعيدا ، وعضلات وجهه تتقلصـ .

– لولا وقوفك هكذا ما وقعتـ .

– قدمك انزلتـ .

– ليست قدمى !

– إذا لم تكن قدمك فماذا تكون ؟

– أنت ! وقوفك هكذا فى طريقىـ .

كانت واقفة بعيدة عنهـ . لا يمكن مهما حدث أن تكون سبب وقوعهـ ، لكنه كان عاجزا عن إدراك سبب آخر . كان يؤمن بهذا المبدأ :

– إذا أصابه شر فهو من المرأة ، وإن أصابه خير فمن نفسهـ .

لم تفتح فمها بكلمة واحدة . أمسكت رأسها بيديها . عليها أن تتظاهر بأن قدمه لم تنزلق ، وأنها السبب فى وقوعهـ . أن تعتذر عن خطئها وتطلب منه المغفرةـ .

تكورت عند قدميهـ . عيناها تتطلعان إليه وهو واقفـ . كفت عن الحركة تماما . تظاهرت بالموت لحظة . ثم أفاقت . كان الشلال يتدفق ، يفرق كل شئـ . لكن أهل القرية يسرون فى طريقهم كأنما لا يحدث شئـ . أصوات باعة

الصحف تتصاعد. وهو واقف بلا صوت. الصمت يؤكد أن كل شيء واضح
دوماً كلام. اليرميل أمامها والبركة خلفها ولا شيء آخر.

تهالك جسمها فوق الأرض. ربطت المتديل حول رأسها وأجهشت بالبكاء..
انهمرت الدموع تحرق زوايا الجفون الملتهبة. تذوب في الغبار العالق
برموشها. تهبط فوق خديها كالخيوط السوداء..

حركت رأسها ناحية الرجل. كان واقفاً في مكانه. خلع قميصه وكشف
عن صدره. راح يداعب بأصابعه كتل الشعر الملتصق بعضه البعض. في
جسده العاري شيء غير إنساني. لم يكن في مقدورها أن تضع رأسها فوق
هذا الصدر. مربع عريض ومغلق كالصندوق. لاحت لها فكرة أن تفتحه
بالأزميل. لكن يدها لم تتحرك من مكانها. كانت الفكرة خيالاً يروح في
رأسها ويجئ.

مدت يدها لتمسك الأزميل. في تلك اللحظة أصابها ألم حاد في
الصدر. كأنما قطعة متجمدة من النفط دخلت مع الهواء إلى الرئة.

أطلقت الصرخة فوثب فوق قدميه. ظل واقفاً متردداً بعض الشيء متهدل
الملامح. لم يكن ثمة أمل في قدرته على إزالة الألم. لكنه كان موجوداً. في
وجوده شيء ما. أو في الحركة التي وثب بها فوق قدميه. أو في ملامحه رغم
تهديلها. أو نظرة الفزع في عينيه. كان هناك شيء ما يخفف الألم.

استطاعت أن تحرك قدميها نحوه بضع خطوات. يدها فوق صدرها تدوس

على الألم. اقتربت منه فلم يعد بينها وبينه إلا خطوة واحدة. لم يسبق في حياتها أن شاهدت وجه رجل يمثل هذا اليأس.

رفعت عينيها الى السماء. كانت الشمس تغرب، والضوء انطفأ. أتت بحركة انحناء مفاجئة كأنما ستنام. التوى عنقها بزواية حادة الى الأمام. أفزعتها الحركة فانتفضت واقفة. أمسكت الحزام الجلدي فوق كتفها وشدته بقوة. انزلت الحقيبة من فوق كتفها وسقطت الى الأرض. انطلق الأزميل خارجا منها بحركة مباغتة.

هبت نسمة هواء طرية. فتحت أزرار ثوبها تتلقى الطراوة فوق بشرتها العارية. كان للهواء ملمس منعش، أعاد اليها شيئا من سعادتها الطفولية. لم تكن كل طفولتها أحزانا. كانت هناك بعض لحظات سعادة. حين كانت تجلس فوق الجسر، عند الغروب. رآته ينظر اليها. يركز النظر الى صدرها العارى. لم يكن بها أى رغبة لإغوائه. كانت تريد الهواء فحسب، يرطب بشرتها الملتهبة، ويجفف العرق.

كان عريها طبيعيا تحت وطأة الحر. لكنه ظل يحملق فى صدرها كأنما كشفتته عمدا. مدت ذراعها لتغلق الثوب فلم تمتد ذراعها. أغمضت عينيها فى إعياء. أجل يمكن لها أن تهرب. ألم تهرب من قبل مرة؟ ألم تصنع ثغرة فى الجدار تسللت منها وخرجت فى إجازة؟

تلفتت حولها. لم تكن هناك جدران أربعة تحوطها. مجرد مساحات ممدودة من السائل. بركة أو بحيرة أمواجهها سوداء. يمكن العثور على

قارب. أو تصنع لنفسها مركبا من الجريد. فى طفولتها صنعت سفينة صغيرة من زعف النخيل. وصنعت أيضا طائرة بجناحين من ورق الشجر. بدأت تشد جسمها وتنهض. حركت قدميها فى الاتجاه الآخر بعيدا عن الرجل.

ابتعدت بضع خطوات. رآته عن بعد أكثر إنسانية. ينظر اليها بعينين أكثر رقة. عيناها تنجذبان نحوه. يمكنه أن ينادى عليها لو أراد. لكنه صامت، وفى صمته شئ غير مستقيم.

لم تسير إلا بضع خطوات وعادت. كان الرجل قد دخل الى الدار. رآته مستلقيا فوق ظهره يقطر فى فمه من الزجاجة. بطرف لسانه مسح قطرة سقطت فوق شفته العليا. تطلع حوله كأنما لم يتوقع مجيئها.

- أنت أنانى، أليس كذلك؟

- نعم، ولكنى أفضل من رجال كثيرين.

- هذا أكيد.

- غدا سأعطيك نصيبك، حين يصرفون المنحة.

- غدا لن اكون هنا.

- ماذا تقولين؟

- أرجوك، ساعدنى لأعود، فهناك زوجى ينتظرنى. قد تساوره

الشكوك، وأيضاً رئيسى فى العمل لا يقل عن زوجى تشككا، وقد خرجت

فى إجازة؁ وهذا أمر يثير الشكوك؁ ولكن لم يكن يشغلنى شئ؁ إلا البحث
عن الإلهات؁ ولعلك سمعت عن الإلهة سخمت.

- سخمط؟!

مط شفتيه الى الأمام؁ وهو ينطق الكلمة. إنقلبت شفته السفلى الى
الخارج؁ وقلب حرف التاء الى الطاء.

- ألا تعرف شيئاً عن الحفريات؟

- فى عيد صاحب الجلالة يأمرؤن بالصرف.

- صرف ماذا؟

- الزجاجات.

- لم أعد أريد شيئاً!

- ما المشكلة إذن؟

- لا أفهم لماذا لاتطلق سراحى؟

- سراحك؟

- نعم؁ فأنا مثلك إنسانة ولى حقوق.

- ماذا؟

- حقوق المرأة! ألا تعرفها؟!

- هذا شئ لم نسمع به؁ وعندنا قانون حقوق الإنسان فقط.

نكست عينيها. تنهدت بلا صوت. تهاوت ملامحها وتهدلت كتفاها. لم تبذل محاولة للرد. بدا لو كان الكلام بلا معنى.

غاب هو الآخر فى صمت طويل. أطرق برأسه كأنما يتطلع الى قدميه. أو ربما سقط فى النعاس. ثم رفع رأسه، عيناه تنظران اليها.

- لماذا لاتريدين البقاء هنا؟

- ولماذا تريد البقاء هنا؟

- عملى هنا.

- أتسمى هذه السخرة عملا؟

- هناك طابور طويل ينتظر بلهفة أن يخلو مكانى.

رفع ذراعه وأشار الى خط أسود فى الأفق. تابعت عيناها حركة إصبعه. كان الخط على شكل قوس منحن، يختفى وراء سحابة قائمة، تتبدد قليلا تحت ضوء الشمس. يبدو الخط متحركا، على شكل نقط سوداء، آلاف النقط، تظهر على شكل رؤوس متلاصقة، منحنية الى أسفل، يسيرون بحركة بطيئة تشبه الزحف، يجرون أقدامهم جرا، يتقدمون خطوة وراء خطوة بظهور منحنية. رجال لهم شوارب مفتولة، ونساء رؤوسهن مربوطة بلا وجوه. تهب العاصفة وسحابة جديدة تظهر. يختفون قاما عن الأعين. لا يبدو لهم أثر، إلا ذلك الخط الأسود يتبدى فى الأفق على شكل القوس.

حركت عينيها ناحية الرجل. أمسك فأسا وراح يضرب الأرض. يملأ

البراميل واحدا وراء الآخر. ظهره كان ناحيتها. تسللت على أطراف أصابعها. يمكنها أن تبتعد قليلا وتهرب. ربما تنجح فى الهرب قبل أن يستدير اليها.

لمحت الرغبة فوق لوح الخشب. أحست آلام الجوع فجأة. خلعت الحقيبة عن كتفها ومدت ذراعها. قضمت بأسنانها قطعة خبز. تلتها بقضمة ثانية، وثالثة. رآها الرجل وهي تأكل.

- كيف تأكلين طعامى ثم ترفضين الخضوع لطاعتى؟

- أهو طعامك؟

- بالطبع.

- أنا لا أكل من عرقك. أنا أعرق مثلك؟

- مثلى؟

- نعم مثلا، ألا أحمل البراميل كل يوم الى الشركة؟

- الشركة؟!

رنت الكلمة فى أذنيها غريبة. كلمة غامضة. الشركة. ماهى؟ من هم الشركاء فى هذه الشركة؟ لمن يبيعون البراميل؟ كم يدفعون لها فى اليوم؟ هل يأخذ الرجل أجرها؟ منذ جاءت لم تقبض شيئا. لم تمسك بين يديها شيئا من النقود.

غامت الدنيا فى عينيها. حركت رأسها ناحية الرجل. بدأ يضرب الأرض

بالفأس، ضربة وراء ضربة. حركة ثقيلة بطيئة. ثم يلقي الفأس جانبا. يتثائب. يمسح عرقه بكم جلبابه. يملأ القفة حتى الحافة. يرفعها على مهل بحركة متثاقلة، ثم يفرغها في البرميل. يقطق البرميل بصوت عال.

- المرأة لا يصح أن تعمل من أجل النقود.

- ولماذا تعمل؟

- من أجل هدف أكبر.

بدا الكلام منطقيا. هناك هدف آخر لحياتها. من أجل الهدف الأكبر يمكنها أن تخضع لهدف أصغر. أحست بالارتياح لهذه الفكرة.

رفعت البرميل بذراع واحدة، ووضعت فوق رأسها. التوت عضلات عنقها تحت الثقل. لكنها عادت واعتدلت. كان النفط المتجمد على قدر كبير من اللزوجة. يرتج داخل بطن البرميل ومن الفوهة يتصاعد شئ كالبخار.

تقدمت في طريقها نحو الشركة. انعكس خيالها فوق سطح البركة. بدت والبرميل فوق رأسها كأنما هي الإلهة حتحور تحمل قرص الشمس بين قرنيها.

شدت عضلات عنقها بما يشبه الكبرياء. من قعر البرميل كانت السخونة تنفذ مثل الشمس. سارت بخطواتها الثابتة لا تأبه لشيء.

بدت الشركة من بعيد كبقعة سوداء في مساحة أكثر سوادا. قطعة من

الأرض مرتفعة فى السماء على شكل مدخنة. تقذف اللهب وذرات سوداء تبدو تحت لهيب الشمس حمراء.

ربما ولدت هنا وليست لديها حياة أخرى. إلتوى عنقها بحركة مفاجئة وكاد البرميل يسقط. رفعت ذراعها وأمسكته بحركة سريعة.

كانت الشركة تبتعد كلما هى اقتربت. غابت الشمس وبدأ الليل يزحف. أتت بحركة إنحناء مفاجئة كأنما ستنام. منذ الطفولة لم تحمل شيئا فوق رأسها. أرسلتها خالتها الى المدرسة. كانت تربط المنديل وتلفه حول جبينها ثلاث مرات، وتقسم بالسيدة الطاهرة ألا تحمل بنت أختها شيئا فوق رأسها. رفعت البرميل من فوق رأسها وحملته فوق ظهرها. ربما يكون هذا الوضع أفضل. إذا تسربت السخونة إلى الظهر فلا شئ هناك إلا العظم، أما سخونة الرأس فهى تذيب العقل.

- أل هذا السبب تحمل الحمير فوق ظهرها وليس فوق رؤوسها.

أدهشتها الفكرة. أصبح ذهنها أكثر نشاطا. بدت لها الحمير أكثر ذكاء من النسوة. أدركت أيضا لماذا يرفض الرجال أن يحملوا فوق رؤوسهم. أزاحت البرميل قليلا أسفل ظهرها، فأصبح أقل وزنا. بدأ الهواء المنعش يدخل صدرها ببطء. تحرر رأسها من الثقل، طرأت لها فكرة جديدة. كانت دهشتها تزداد كلما أوغلت فى الفكرة. بدأ جسدها يرتعد. موجة من التمرد تغزوها على شكل الرعدة.

مسحت العرق عن جبينها بكفها. أمعنت النظر الى حياتها. ما الذى يعجزها؟ فى طفولتها ماذا أرادت أن تكون؟ تساقط جسدها من الإغياء. كانت تريد أن تكون نبيه مثل السيدة الطاهرة، بمقدورها أن تعيد الحركة الى السيقان الكسيحة، والبصر الى العيون المريضة.

- امرأة نبيه؟! لم نسمع عن هذا من قبل!

- ورثت الجنون عن خالتها.

- ركبها عفريت.

أغمضت عينيها وراحت فى النوم. كانت تقاوم اليأس بالسقوط فى النوم. يسترد عقلها بعض الحماس. يزحف الأمل الى جسدها مثل دودة الأرض. نظرت الى الساعة فوق معصمها. الوقت يمضى وهى راقدة. هبت واقفة فوق قدميها. مدت ذراعها وقبضت على الأزميل.

كانت الأرض تتغير مع تغير النفط. وكان النفط يتغير مع حركة الشمس والرياح. وأنفاسها فى صدرها تعلو وتهبط مع ارتفاع درجات الأمل واليأس. واندفاعة الدم من القلب الى الذراعين، ومن الذراعين الى الأزميل، ومن الأزميل إلى الأرض، ومن الأرض الى النفط والرياح والشمس.

بدا كل شئ يدور فى توازن عجيب كأنما هو ناموس الكون. إذا تغير النفط فكل شئ من حولها يتغير. الأرض والسماء وجسدها أيضا يتغير. ربما هى قوة للنفط غير معقولة. أو طبيعة أخرى غير مألوفة. فالنفط

المتجمد ليس هو النفط السائل، وطين النفط الراسب فى القاع له قوام آخر، ومقاومة مختلفة تماما. وفى بطن الأرض يتغير كل شئ حتى الرطوبة. وفى رأسها تدور الفكرة وراء الفكرة، والأزميل يضرب الأرض الضربة وراء الضربة. دون جدوى. لا أثر لشيء وكل شئ ينتهى إلى لا شيء.

حين عادت رأت الرجل راقدا فوق ظهره وعيناه مفتوحتان. فى يده سجارة مشتعلة. حرك رأسه قليلا ناحيتها وسأل. هل قلت شيئا؟ لم تكن تكلمت. كانت ترمق الشعلة فى يده. ربما كان الحريق هو الخلاص.

– ماذا قلت؟

– لا شيء.

قالت «لا شيء» برنة خضوع. غرق المكان فى الصمت. إذ اشتعلت ذرة واحدة فسوف تلتهم النار كل شئ. لم تجذبها فكرة الموت حرقا. حركت قدميها ناحية الباب. شدت المقبض بذراعيها الإثنتين. لم يفتح. تشرب بالبلولة والتصق بالأرض.

أطفأ الرجل السيجارة فى كعب حذائه. ثم أمسك الصحيفة واختفى وراءها. رأت صورة صاحب الجلالة والمانشيت الكبير.

– بمناسبة العيد أمر جلالته بغسل تمثال النصر.

أغمضت عينيها، ثم فتحتها. رأت شيئا يجرى يشبه الثعبان، رفع ذيله

حين رآها، كأنما يؤدي التحية. هزت رأسها ترد التحية. نفخ الهواء بصوت مسموع. أدركت أنه يقول شيئاً بلغة أخرى. هزت رأسها علامة الفهم. تحولت الاهتزازة إلى حركة مباغتة من يدها، وشدت الصحيفة من فوق رأس الرجل.

- لا يمكن لواحد من البشر أن يحتمل هذا، وأنت تتمدد فوق الكرسي تدخن وتقرأ كأنما لا يوجد خلل في العالم!

- أي خلل؟

- هذا الخلل! ألا تراه؟

تابعت عيناه إصبعها وهي تشير إلى أعلى في حركة دائرية.

كان تمثال النصر من حجر السيج. تعلوه طبقة سوداء من غبار النفط. يبدو وجهه قبل الغسيل أسوداً تطفو عليه بقع الزيت.

ولم يكن لها أن تتخلف عن حضور الاحتفال. صدر الأمر مكتوباً على الآلة، ومختوماً بالصقر. على النسوة أن يقمن بالغسيل. وعلى الرجال الوقوف في صفوف منتظمة، وأداء التحية.

لم تعرف كم من الزمن مضى وهي تغسل. بدا لها التمثال طبعاً تحت يديها. أنفاسها كانت تتلاحق مع حركة ذراعيها، والخفقات تحت ضلوعها، ودقات الساعة فوق معصمها. بدت حركة الغسيل لا نهائية أو ربما حركة لا إرادية، أو محاولة للهروب من حركة أخرى.

بعد الغسيل أصبح الوجه أبيض اللون، كوجه صاحب الجلالة. مملوءاً باللحم،
وصدره عريض، يعلوه نهدان بارزان كصدر الإله إخناتون.

استمرت حملقتها فى التمثال طويلا. هبت ريح من الجنوب ملأت عينيها
بذرات النفط. اشتد الألم كالحرق فأغلقت جفونها. من ورائها سمعت
الصوت، ويد الرجل تكاد تلمسها.

فتحت عينيها نصف فتحة. لم يكن هو الرجل. رأت امرأة واقفة، تحمل
فوق رأسها الكرة الأرضية أو قرص الشمس. لها قرنان طويلان يلتويان الى
الأمام. الضوء كان خافتا. أو ربما هو التهاب العينين أضعف بصرها. لم تر
وجه المرأة، ولم تتأكد مما تحمله فوق رأسها.

لم يعد عقلها قادرا على التمييز. كل شئ اختلط داخل رأسها مع
اشتداد الحرارة. ارتفع قرص الشمس فى السماء، وازدادت حركة الريح مع
تدفق السائل الأسود. هبط العرق على شكل قطرات من أنفها. لم يكن
لذراعها أن ترتفع لتمسح العرق. تركته يتساقط مع دموعها ويفيض. ربما
كان قرص الشمس هو العدو. اشتغل عقلها من جديد وهى تفتش الأرض
لكن صوت المرأة قطع عليها التفكير.

- قومى يا اختى استحمى، كل عيد وانت طيبة.

تقلبت فى موضعها تتأملها. جلابيها أسود طويل. لها ملامح خالتها.
عنقها يلتوى تحت الثقل. الى جوارها طشت الغسيل. أمسكت قطعة حجر
وراحت تدعك قدمها المشققة. تزيل عنها الطبقة السوداء. تصقلها بقوة كأنما

هى قدم تمثال النصر. أحدث الدعك فى رأسها خدرا لذيذا. لم تعرف ما علاقة القدم بالرأس.

لولا ضربة الشمس كان يمكنها الاستمتاع أكثر بعملية الغسل، ولولا أيضا بعض الحياء. فهى امرأة غريبة عنها وليست خالتها. وهى تخلع ملابسها كلها. كان العرى مفزعا. لم يحدث قط أن تعرت أمام امرأة أو رجل، على الأخص زوجها. كانت فى نظره طاهرة كالعذراء مريم، ورئيسها فى العمل كان يسميها الست الطاهرة. حتى دخل فجأة فى حملة تفتيشية.

- أين المنشور؟

- ماذا؟

- المنشور الذى أخفيته.

- لم أخف شيئا.

- رأيتك معك بخط يدك ضد صاحب الجلالة.

- لم أكتب شيئا.

- إرفعى ذراعيك!

رفعت ذراعيها الى أعلى. أحست أصابعه تفتش بين نهديها. وتهبط الى أسفل حيث المنطقة المحرمة.

- هذا انتهاك لحرمة الجسد!

حين ثابت الى وعيها كانت تصيح. أين حقوق الإنسان؟ رأت نفسها راقدة فى الفراش. من حولها النسوة حاملات البراميل. فوق عيونهن سحابة. طبقة داكنة من النفط تحجب التنى، وكان هناك أمر من صاحب الجلالة :

- أى امرأة تضبط وفى حوزتها ورقة وقلم تقدم للمحاكمة.

كلما نظرت فى عيونهن اشتدت وطأة الألم. اختفت الواحدة وراء الأخرى. بدأت واحدة منهن وتبعثها الأخريات. سمعت أصواتهن عبر الجدار. يلهثن بصوت متقطع. طقطقت فقرات أعناقهن تحت البراميل. وقع أقدامهن فوق الأرض مكتوم. تحمله الريح الى بطن الجسر حيث بيوت القرية. نباح الكلاب يأتى من بعيد. والسؤال يدور فى رأسها: هل تهرب وحدها أم تكشف لهن الخطة؟



لم تكن الخطة مكشوفة بعد. وكتب رئيسها فى العمل تقريراً سرياً. كانت التقارير عنها لا تكتب إلا فى السر. امرأة أخرى احتلت مكانها فى القسم. تراها جالسة فى مكتبها تحملق حولها فى فضول، لن تكف عن الحملقة حتى تعرف السر. تفتح إدراجها تفتش الأوراق. تقبض بأصابعها على رسالة حب قديمة. أبيات من الشعر تقرأها. بين كل بيت وبيت ترتفع أنفاسها فى تنهيدة طويلة. فى الملف السرى تعثر على تاريخ ميلادها. صورة خالتها من حول رأسها المنديل. تتوقف عيناها فوق البيت. غرفة بلا

دورة مياه فى الزقاق. يدفعها الفضول الى النظر من شق الباب. ترى الغرفة راقدة فى الظلمة عارية من الأثاث. بحركة جانبية من عينها تلمح زوجها جالسا يقرأ الصحيفة. يحرك رأسه قليلا فترى أنفه من الجانب. كبير ومقوس يشبه أنف صاحب الجلالة. لكن صورته غير منشورة واسمه مجهول. جالس بلا حراك صامت تماما. يشى الصمت بغيابها. تمتلئ نفسها بالحسد لأنها استطاعت أن تهرب. كيف هربت؟ خرجت فى إجازة ولم تعد؟ تكتم السر فى قلبها ثم ينفجر رغما عنها. تنتشر الإشاعة فى قسم الحفريات. يتهامس الزملاء والزميلات وتطفو فوق عيونهم نظرة تنم عن الغيرة.

لم تكن الغيرة أمرا مضادا للعقل. كانت طبيعية تماما فى عيون الموظفين. فليس هناك إنسان أشد غيرة من الموظف. خاصة فى قسم الحفريات. يرى الناس من حوله تتحرك وهو حبيس مكتب من الخشب. يتحدث الناس عن المستقبل وهو يعيش فى الماضى مع الحفريات. والحياة تمضى فى طريقها بدونه. لا يتغير شئ فى الكون إن عاش أو مات. ليس أمامه إلا النعاس وهو يقرأ الصحيفة، أو البحث عن الآلهة فى بطن الأرض. نوع من العشق الإلهى، يقوده الى الحنين للموت. أو الخروج فى إجازة.



- هل حدث بينكما شجار؟

- أبدا.

رد زوجها على السؤال فى غرفة التحقيقات. إدار رجل البوليس جسمه مع الكرسى.

- أظن أنها انتحرت؟

- أبدا.

- ألم تكن تحن للموت؟

- أبدا.

- كيف تفسر اختفاؤها إذن؟

- لا شئ.

- لا شئ؟

- نعم لا شئ !

مط زوجها شفتيه وهو يقول لا شئ. تشاب حتى طقطقت عظام فكيه. حرك وجهه ناحية الصحفيين. انطلق شعاع الفلاش وحرق سطح عينيه. ظهرت صورته فى الصفحة الداخلية. فكه مربع والوجه مستطيل أكثر من اللازم. لا علامات مميزة إلا شامة سوداء فوق خده الأيسر. من بين شفتيه المطبقتين أفلتت الابتسامة. فى خياله منذ الطفولة كان يرى صورته الى جوار صاحب الجلالة. ترفع أمه ذراعيها الى السماء، تدعو السيدة الطاهرة أن يصبح ابنها مثل الملك. لم لا يا ستنا الطاهرة؟ ألم تلده بطن مثل البطن التى ولدت الملك؟

كان لهاث النسوة قد اختفى مع خيالهن الأسود. نباح الكلاب من بعيد بدأ. لم تكن الكلاب تتبع دونما سيب. أتدبر هؤلاء النسوة حركة ما؟ فى عيونهن تحت السحابات نظرة متمرده. عمل مضاد فى حالة كمون دائم.

فتحت عينيها فأحست حرقة الشمس. كانت تهذى بالحمى. وكلمة العمل المضاد ترسم من حولها ستائر من الوهم. ترى نفسها متربعة كالبرميل فوق رؤوس النسوة. يسرن بها فى أزقة القرية. تطل عليهن العيون من فوق الأسطح، يخبطن الأرض بأقدامهن، وتهتز صورة صاحب الجلالة فوق العمود، ثم تسقط تحت الأقدام تدوسها.

دعكت عينيها بطرف أصبعها. الألم حارق، وهى ممدودة فوق الأرض. منهوكة القوى. طارت ذبابة ووقفت فوق أنفها. راحت تأكل قطعة متسلخة من الجلد. رفعت ذراعها لتهشها، لكن الذبابة بقيت فى مكانها. فى يدها الأخرى كان الأزميل راقدا، بلا حراك. ترامى من بعيد صوت نباح، وأطفال يتقاذفون بالحجارة، ورجال يتشابكون بالأيدى، والنفط يتدفق بلا اتجاه، وألوان السماء تغيب فى الظلمة.

- جهزى العشاء!

صوت الرجل يخرق أذنيها. نبرة أمرة، طبيعية تماما حين يخاطب الرجل زوجته. خادمة غير مدفوعة الأجر. أياكون هو زوجها؟ لا تعلم تماما متى تزوجها. ربما أقدم على الزواج منها فى غيابها وحرر العقد دون حضورها. لم

تكن المرأة تحضر عقد زواجها على أى حال، وكل شئ يمكن أن يتم دون الحاجة الى وجودها.

تقلصت عضلات أصابعها حول الأزميل. شحنة مفاجئة من الغضب، دفعت الدم فى العضل. رفعت ذراعها وضربت بطن الأرض. ارتطم رأس الأزميل بشئ صلب. تمثال من البرونز، أو حجر السيج. لونه أقل عتامة كالزجاج البركانى.

ارتعدت أصابعها وهى تشده الى الخارج. لامست اطراف أناملها سطحه الناعم. تحسست العنق والصدر. ارتطمت يدها بالنهدين البارزين. أطلقت صيحة وفتحت عينيها. كانت هى الإلهة حتحور، عارية الشدين، تمسك نهديها بكفيها فى وضع عطاء كامل، ممسكة بزوج من الأفاعى.

كادت تمسكها لولا أن تدفقت كثبان النفط وأغرقت كل شئ. أ يكون هو طوفان نوح؟ فى كتاب الحفريات قرأت عن الطوفان، سنين القحط والجفاف، وزحف الجبل والصحراء. كانت الأرض مقبلة على العصر الجليدى، وحدث خلل فى التوازن الحيوى للغلاف الجوى، وانقلب نظام الحكم بعد مقتل الإلهة الأم.

- جهزى الأكل أنا جعان!

لم تسمع هذه المرة. كان صوت النفط المتدفق يغطى على كل شئ. تراخت أصابعها حول الأزميل وسقط. كاد التيار يجرفه لولا أن مدت جذعها وأطلت برأسها حتى الحافة. تشبه دوامه البحر. تدور حول نفسها بسرعة

دورات الأرض. يتصاعد منها الدخان كأنما هي تغلى. ارتدت طفلة تصرخ:

– يا أماء!

ارتج جسدها مع الكلمة. أماء؟ لأول مرة تنطق الاسم بوضوح. منذ ولدت لم يحدث أن نادت على أمها. ربما لأنها ماتت وهي تلدها. أو لأنها لم تكن تعرف النطق بعد.

حين هدأت العاصفة قمدت في استرخاء. أنفاسها تلهث وعيناها مغلقتان. عادت اليها صورة الطوفان القديم. كان الخوف من الغرق يملأ قلوب الناس. وفي قمة الخوف يلهجون مثلها باسم الأم. خالتها حين كانت تخاف تصرخ: يا أمه بدلا من يا أماء! تبصق في فتحة جلبابها. الأزقة كانت ضيقة مسدودة بأكوام السباح. البيوت طينية لا يظهر منها إلا ذؤابات ضوء، ترسم الظلال كالأشباح. ليل القرية كان مخيفا. ليل مسكون. يلاتم الشيطان تماما ليتجول فيه. كانت خالتها تمشى في بطن الجسر حين زأته تلك الليلة. كان هو الشيطان بلحمه ودمه متجسدا على شكل البشر. وقال الناس: الطوفان من الشيطان، وراحوا ينادون على الإلهة الأم لتنقذهم:

– يا أمنا الحبيبة، أين أنت؟

– أهو الشيطان الذى أخفاك؟

– وضع غلالة سميكة فوق وجهك؟

– شوه صورتك وغير اسمك؟

كانت نائمة حين قرأت الأغنية فى الكتاب. صوت غنائهم يسرى فى أذنيها من تحت الوسادة. ينقطع الغناء فجأة، ويدوى صوت زوجها.

– أنا جعان! ألا تسمعين؟!

لم تغير وضع جسمها الممدود فوق الحافة. صوته الغاضب كان يأتى من بعيد، كأنما من قاع البئر. لا تكاد تسمعه بأذنيها. لا يلامس منها إلا حافة الوعى. انقلبت على جنبها الآخر لتخفف من حدة الشمس. صوته رغم الغضب يشبه صوت طفل رضيع. ألم تظلمه أمه بعد؟ قبل أن تظلمها خالتها كانت تمسك بفكيها حلمة الثدي. كانت الدنيا ليل، والحرارة انخفضت بعد غياب الشمس، وصوت الطوفان كأمواج البحر.

– أنا جعان.

صوته أصبح مملوءا بالرقعة. كان الجوع يهذب من طبيعة الرجال. يكشف عن الانسان تحت القشرة الخشنة. وامتلاً قلبها بالشفقة كالأم. دخلت المطبخ وأشعلت الموقد. ضغطت على المسدس فانطلقت الشرارة. ضحكت كما كانت تفعل وهى طفلة. سخنت له الحساء فى وعاء من الألومنيوم. قشرت البطاطس ورؤوس البصل قطعتها بالسكين. تصاعد البخار من الوعاء، وتساقطت ذرات النفط من السقف. صنعت طبقة معتمة فوق سطح الحساء. راحت تنزعها بيد المغرفة. لكنها كانت تعود وتسقط فتتزعها فتعود، الى أن نجحت فى نزعها تماما، الا ذرات قليلة سوداء ظلت طافية فوق السطح كالذباب الميت.

كان يرشف الحساء بصوت مسموع يشبه الأنابيب وهى تشفط النفط.
بين كل رشفة يزمرجر بصوت يشبه قرقرة الريح. ويدب الصمت بعد أن
ينتهى من الأكل. يغمض عينيه دون أن يخلع بدلة الشركة. لونها أزرق
تعلوها بقع النفط كالزيت. تفوح منها رائحة الجاز المخزون فى بطن الأرض.
يبدو وهو نائم كطفلتها التى ولدتها فى حياتها السابقة ثم ماتت. حين
يصحو من النوم تخلع عنه ملابسه. تدعك جسمه بقطعة من الحجر. ثم
تنشفه بسروالها القديم. تلوى المنشفة بين يديها حتى تصبح مثل حزمة من
سلك الألومنيوم. تنشفه بقوة كأنما هو قاع الصحن. من بعيد يترامى نباح
الكلاب. ولهات النسوة، فى إيقاع منتظم يشبه اللحن، تهز رأسها بالإيقاع
ذاته، مع حركة ذراعيها وأنفاسها المتصاعدة، والدقات تحت ضلوعها. ثم
تصبح الحركة بطيئة، رتيبة متكررة تجلب لها النعاس وهى واقفة

تثابت بصوت عال. رآته يدخن وهو جالس وراء الصحيفة. ينفث الدخان
من بين شفتيه ويغيب فى اللذة.

- نفس أرجوك!

- ماذا تقولين؟!

- نفس واحد من السيجارة!

- النسوة لا تدخن بأمر صاحب الجلالة.

أطبقت شفتيها ولم ترد. كانت قد أطعمته وحممته. جعلت منه طفلتها

الغائبة. مسحت عنه الألم. أليس من حقها أن تغيب في اللذة مثله؟
حين ناولها البرميل لتحمله أرادت أن تقلبه فوق رأسه. لكنها تراجعته.
يمكنها الخضوع اليوم من أجل هدف أكبر في الغد. لا يمكن أن تخسر كل
شيء من أجل نفس واحد.

كان الدخان يتسرب من فتحتى أنفه. تتسع الفتحتان وتهتز شعيراتها
من شدة اللذة. جذبت نفسا عميقا من الهواء. شهيق عميق مرة ومرتين.
تسرب بعض الدخان الى صدرها. نفثته من فمها وأنفها. أجل، إذا لم يكن
في الحياة لذة فمن حقها أن تنفث الدخان فى الهواء. قد يتسرب الغضب مع
الدخان خارج جسمها، وتبدو الدنيا أقل كآبة. أو ربما يصعد الدخان الى
رأسها فتعثر على فكرة عبقرية تخلصها من حياتها.

كانت ترى صور العباقر فى الكتاب. تحوط رؤوسهم سحب الدخان.
يميل الواحد منهم برأسه الى ناحية. يسند ذقنه بيده. عيناه نصف
مفتوحتين شاخصتين إلى أعلى، ثابتتان فوق الاشئ. والدخان يتصاعد من
فتحتى أنفه المتسعيتين. وفى الكتاب أيضا كانت ترى صورة الأنبياء،
ولا يمكن للواحد منهم أن يرى الإله إلا من وراء سحابة دخان.

جذبت نفسا آخر أكثر عمقا. امتلأ رأسها بالدخان. بدا عقلها ينبض تحت
العظام. والفكرة تولد بحركة محسوسة. حوطت رأسها بيديها تخشى عليها
الإفلات. قد تتسرب الفكرة من الثقوب التى تفتح على الأذنين أو العينين

أو الأنف. راحت تضغط يديها على عظام رأسها. لم يكن فى مقدورها أن تستمر على هذا الوضع فسقطت ذراعاها الى جوار جسمها.

- أtnامين وأنت واقفة؟

تمطت وتثاebت بصوت يشبه مأمأة الماعز. سمعت بأذنيها الصوت كصفير الريح. كانت العاصفة تهدر والذرات السوداء تزحف من تحت ملابسها. تغزو فتحات الجسم. أغمضت عينيها تماما وذابت الـيقظة فى حلم غريب. رأت نفسها تـمطى صهوة الأزميل كأنه حصان. يجرى بها عبر مدينة مجهولة. مبانيها عالية. أطراف المباني تشق السحب. شوارعها ضيقة لاتكاد تسمح بمرورها. يطير بها الأزميل فى الجو بلا أجنحة. يحلق فوق الاسطح وهى تهز رجليها كأنها تركب المرجيحة. عيون النسوة ترمقها بإعجاب مملوء بالحسد. أيديهن ترتفع فى الهواء تصفق، ثم تشدها الايادى إلى أسفل بأمل اسقاطها. تهز رجليها بقوة ليرتفع بها الحصان، الذى لم يعد حصان، وإنما عصا من الجريد، تركبه كما يفعل أطفال القرية.

تشدها الأيادى فتسقط. يتهاوى جسمها ويغرق فى الضباب، ثم ترى نفسها تمشى فوق الأسفلت، يلذوب تحت قدميها من شدة الحر. تعلق بكعب حذائها قطعة من القطران لها رائحة النفط. تسرع الخطى وهى تلهث، وتدخل فى بناية سوداء، بلا نوافذ ولا أبواب، إلا الأعمدة الحديدية، والرائحة خانقة. الأزميل داخل حقيبتها، والحزام فوق كتفها تشد عليه. قدماها تصعدان السلالم، توشك على الانزلاق. تستعيد توازنها دون أن تمسك شيئا. لم يكن

هناك ترابزين، والسلم حلزوني ضيق، لا يسمع بمرور جسمها. تندفع داخل باب صغير ينفتح فجأة، فإذا بها داخل الغرفة العارية من الأثاث، إلا مقعد يدور حول نفسه، ومنضدة يتحلق حولها عدد من الرجال، لا يظهر منهم إلا النتوءات البارزة فى عظام الوجه، الجبهة، الخدان، الفك، عظمة الأنف، والذقن.

لم يرفعوا رؤوسهم حين دخلت. عاكفون فى استغراق فوق كتاب. يقلبون أوراقه بأصابع مفاصلها بارزة. يبدأون من الغلاف حتى الصفحة الأخيرة، ثم يبدأون من جديد.

– أهذا هو اسمك؟

الصوت يشبه زوجها، لكن الغليون الأسود فى الفم يؤكد أنه رئيسها فى العمل، دار حول نفسه وهو جالس فى المقعد. أصبح أمامها مباشرة. رأت وجهه وأدركت أنه المحقق فى البوليس. دب الصمت. سمعت قرقرة الأوراق، وسحب الدخان تتصاعد الى السقف. إصبعه يشير إلى الاسم فوق غلاف الكتاب.

– إنه اسمك أليس كذلك؟

– نعم.

– والكتاب؟

– عن الإلهات.

- أليس ذلك تجديفاً فى حق الآلهة؟

أرادت أن ترفع يدها وتساءل. ماهو التجديف. وأين المجدف، لكن الضباب أعاقها عن الرؤية. وسمعت ضجة مفرقة صادرة عن أوراق تتكسر. ملأت أنفها رائحة دخان. كان الورق يحترق. طارت شرارة من فوهة الغليون المشتعل. امتد الحريق الى براميل النفط. انفجر الواحد وراء الآخر وارتفعت ألسنة النيران فى السماء.

حين فتحت عينيها كان أنفها مملوءاً بالدخان. الرجل جالس فى مكانه يحدق فيها. تصور أنها سرقت سجارة من جيبه وهو نائم. قبل أن ينام كان يعد السجائر، والقروش فى جيبه الداخلى، والزجاجة يخبئها فى مكان لا تعرفه. لكن الدخان كان يفرق المكان. يزحف فوق بيوت القرية كالشبورة السوداء.

خرجت الصحف تعلن أن الحريق تم بفعل الشيطان. رفع أهل القرية أذرعهم نحو السماء. يرمون الشيطان بالحجارة. ارتفعت أصواتهم كهدير الرياح. لكن السماء لم تسمع دعاءهم. كان الشيطان يتمشى فوق الجسر. ترمقه عيون النسوة من وراء الشيش. تنتفض أجسادهن داخل الجلابيب السود. يربطن رؤوسهن بالمناديل. تشد الواحدة منهن المنديل، وتلفه ثلاث مرات. تعقده فوق جبينها على شكل رأس الثعبان. تدور حول نفسها وتضرب الأرض بقدميها : يا ستنا الطاهرة! ترتفع أصوات النسوة، ودقات الطبول، وصياح الأطفال، وقرقعه العصي فى أيدي الرجال، ونقيق الضفدع

فى البركة؁ ونباح الكلاب تجرى هنا وهناك؁ والغبار يتصاعد فى السماء؁
ويمتلئ الكون بضباب أسود؁ يزحف متدفقا كالشلال؁ لا هو بالسائل ولا هو
بالدخان؁ ولا يمكن الإمساك به بين أصابع اليد.

– أين اخفيت الزجاجاة؟

قالتها وهى تصحو فجأة من النوم. حلقها تشقق من الظمأ؁ والسخونة
فى جوفها كالحرىق. كان الرجل راقدا وجهه للحائط. دست يدها تحت رأسه.
لم يكن هناك إلا عقب سجارة محترق. تسللت على أطراف أصابعها. فتحت
الباب وخرجت. لكن الهواء لم يعد له ملمس الهواء. يدها حين تمتد أمامها
تصطدم بشئ صلب. تراجعت الى الوراء خطوة وراء خطوة؁ حتى دخلت
بظهرها من الباب. حركة لم يألّفها جسمها منذ الطفولة. كانت تمشى الى
الأمام ووجهها الى الخلف؁ أو تخرج من الباب بظهرها. فى تلك اللحظة
تكون خالتها واقفة أمامها. تحديق فيها بعينين يرتعش لهما البدن؁ لم تكن
فعلت شيئا سوى أن سألتها : هل صحيح ياخالتي الشيطان يتمشى فوق
الجسر؟ فانقلبت عيناها الى الداخل ثم الى الخارج. كانت العاصفة فى
أوجها. والمطر يهطل وانطفأت كل الأضواء. ولم تعد تسمع إلا صفير الريح.
وصوت خالتها يدوى فى ظلمة الليل : ماشيطان إلا بنى آدم.

قبل الفجر سمعت الكلاب تنبح؁ وقرقعة العجلات مع صفير الريح. هجم
الرجال على خالتها وحملوها الى العربة. قفزت خلفهم تجرى. قد ذراعها عن
آخره لتمسك يدها. قدماها تغوصان فى البركة حتى الركبتين. العجلات

تشق المياه السوداء وتختفى فى الظلمة. الكلاب تسبح من خلفها. لا يظهر منها إلا رؤوس سوداء مستطيلة مثل سرب من الضفدع. وهى تغوص فى البركة. تمتلئ أذناها بطين أسود وأصوات تأتى من بطن الأرض :

- امرأة لا تؤمن بوجود الشيطان؟

- إنها مجنونة يا صاحب الجلالة.

- بل كافرة!

- نعم يا صاحب الجلالة، والكفر والمجنون شئ واحد.

كانت قد غاصت تماما، ولم يظهر منها فى ضوء الشفق إلا ذراع ممدودة عن آخرها، وأصابعها الخمسة متقلصة، تقبض على قطعة من الطين المتجمد.

امتدت اليها الأذرع تشدها الى الخارج. كأنما يشدونها خارج الرحم. وجوه النسوة من حولها سمراء مليئة بالتجاعيد. اندفع الهواء الى صدرها بصوت حاد كالصرخة وفتحت جفونها الملتصقة. رأت الرجل راقدا مغمض العينين، ذراعه تنزف الدم. وهى الى جواره عارية الجسد والدم لونه أسود. يتجمد فى أجزاء، وتظل أجزاء أخرى مابين السيولة والصلابة. وهى تمد ذراعها لتمسك بالترابزين. رائحة فى أنفها غريبة، تشبه الجاز المتعفن.

- جهزى الشاى.

سمعت صوته وهو يشد سرواله الى أعلى. كان نصفه الأعلى عاريا.

يجلس أمام عتبة البيت. من حوله أربعة من الرجال. عاكفين في استغراق حول لعبة ما. أوراق سميكة مربعة. كان هو جالس في الوسط يوزع عليهم الأوراق. جسده يرتخي فوق المقعد، والصدارة تلامس جسده تماما، تتساق مع ملامحه. أصابعه يضمها بالأوراق ويفردها ثم يضمها، وعيون الآخرين تنظر الى يده متلهفة.

- الشاى!

في صوته لهجة الأمر. كأنما هو زوجها. وهي تنظر اليه من خلال غشاوة. ربما استبدلوا زوجها برجل آخر. انبعثت خشخشة صادرة عن حركة توزيع الورق. وجوه الرجال مشدودة. عيونهم ثابتة فوق الورق. داخل كل عين يدور «النتى» حول نفسه. لا بد أنهم خمسة وليسوا أربعة. كان رأس خامسهم يختفى وراء الصحيفة. أيكون هو زوجها؟ ساقاه ممدودتان أمامه. قدماه كبيرتان. وأصابعه متلاصقة، بين الأصبع والأصبع غشاء أسود.

كانت الشمس قد بدأت في الهبوط. سقط الضوء الشاحب على الصفحة الأولى. ذرات سوداء تسبح في الشعاع المائل. أعلى الصفحة قرأت التاريخ. الثلاثاء الموافق السادس عشر. نظرت في الساعة، الثانية، وعقرب الثواني يتحرك. لا بد أن الزمن يمر كالمعتاد، وقرأت المانشيت الكبير.

- صاحب الجلالة يعلن الحرب على الشيطان.

أوراق اللعب لم تكن هي الكوتشينه. وإنما هي شئ يشبه الشطرنج.

أجسام العساكر مصنوعة من الخشب. واقفه فى مكانها عاجزة عن الحركة.
أصابع كبيرة تلتف حولها، وتحركها من مكان إلى مكان.

- كش ملك!

ليس صوت زوجها بالتأكيد. لم يعد يطلب الشاى. استغرق فى اللعب.
يبدو أن الملك لا يريد أن يكش. ارتفع الصوت مرددا : كش! بدأت النبيرة
يعلوها الغضب. والأصوات تختلط بعضها ببعض.

- هذه قواعد اللعبة يا أخى.

- أنت تغش

- أنا أكثر أمانة منك.

- أنت جاهل.

- أنت حمار.

تركوا الملك واشتبكوا فى معركة بالأيدى. ارتفع الغبار فى الجو، وانتشر
رذاذ لعابهم من حولهم، وأنفاسهم تلهث. لم يفتن أحدهم الى الصحيفة،
دحرجتها الريح، تقلب الصفحة وراء الصفحة. وفجأة رأت صورة تشبهها.

- امرأة خرجت فى إجازة ولم تعد. مطلوب العثور عليها حية أو ميتة.
ممنوع إيوائها أو التستر عليها.

لم يكن لها هذا الأنف فى الصورة. أياكون هو أنف امرأة أخرى خرجت
فى إجازة؟ كان رئيسها فى العمل يقول ان أنفها روماني. تصورت أول الأمر
أنه نوع من الهجاء... كان الرومان فى نظرها من آكلى اللحوم.

فى الصفءة نفسها رأء صوءة المءقق. كان ءالساف فوء الكرسى ىءور به
ءول نفسه ثم ىءوقف. فىصبع ظهره للمءائط ووءهه ناءىة زوءها.

- أهءه صوءة زوءءك.

- نعم.

- مءأكء.

- نعم مءأكء.

- مائة فى المائة.

- لىس هناك ماهو مائة فى المائة.

- أنء ءىر مءأكء إءن؟

- نعم لا.

- ماذا ءعنى بنعم لا؟ أهءه اءابة؟

- ماذا ءكون الاءابة؟

- اما نعم، واما لا.

- إءن نعم.

- أنء ءىر مءأكء اءن؟

- نعم.

- مائه فى المائة.

- لا.

ضرب رجل البوليس الأرض بقدميه. فإذا بالكرسى يدور حول نفسه دون توقف. انتهز زوجها الفرصة، فأخفى وجهه وراء الصحيفة. حين توقف الكرسى أصبح وجه المحقق ناحية الحائط. راح يدق بأصابعه على الآلة الكاتبة، ثم استدار. كان رئيسها فى العمل جالسا، والغليون الأسود بين شفتيه، يهتز والدخان يتصاعد.

- لم أكن اتغزل فى أنفها. فأنا لست من المعجبين بالأنوف الرومانية، وأفضل عليها الأنوف الوطنية من النوع الأفطس.

- ماذا تقول؟

- كانت امرأة مطيعة تماما ولاشئ فيها يشير الشهية.

كان المحقق يدور بالكرسى حول نفسه. وعاصفة من الهواء تقلب الأوراق. لم يكن هناك دليل على شئ. والصحيفة مفتوحة أمام عينيها. صورتها تظهر وتختفى مع حركة الريح. وأخبار المفقودين من الناس أسفل الصفحة. كان اختفاء الناس أمرا طبيعيا. وهناك قانون للمفقودين من الرجال. على المرأة ان تنتظر زوجها المفقود سبع سنوات، ولاتذهب لرجل آخر، فالجنين يبقى فى الرحم حيا سبع سنين. وهو ملك الرجل المفقود حتى يعود، والمرأة ليست إلا الوعاء. المفقودات من النساء لم يكن لهن قانون، ليس على المرأة ان تصبح مفقودة لينهب زوجها لامرأة أخرى.

أغمضت عينيها في مواجهة الريح. شعاع الشمس مثل لسان اللهب. كانت الفكرة تدور في رأسها مؤلة كالمسمار. إذا كان التحقيق مستمرا فلا بد أن هناك حملات تفتيش. وهناك من يتعقب خطاها. ربما هناك كلاب من النوع الجيد. ذلك النوع المستورد الذي يميز رائحة البشر. يدرّبونها على التقاط الرائحة من المسافات البعيدة، ورؤية النجوم وقت الظهيرة، والدق على الآلة الكاتبة، واستخدام الأدوات الحديثة، وهي لاتعرف شيئا عن الحداثة، كل ماتعرفه ينتمى الى الماضى والحفريات. لن تحميها الإلهة حتّحور أو سخمت من أى كلب مدرب. لكن فى اعماقها شئ غامض. ربما كان الأمر عائدا الى ذلك الرجل الآخر. أ يكون هو الذى أرسل البلاغات عنها الى البوليس؟ أو ربما هو رئيسها فى العمل. لقد لمح بطرف خفى الى شكل أنفها، وهذه دعوة صريحة لها هو أكثر من الأنف.

أفاقت على صوت الشخير المنتظم. كان الرجل يغط فى نومه فوق عتبة الباب. راح يتنفس بصوت عال كعادته. ينفخ الهواء وشفته تهتز. راقدا فوق ظهره، واضعا ساقه اليمنى فوق اليسرى، يهز قدمه فى الهواء. ارتفعت الشمس فى كبد السماء. وصلت الحرارة الى درجة حطمت فيها كل شئ. حتى تلك الغلالة الباقية من الحياء. رآته ينزع عن جسمه السروال أيضا. أصبح عاريا كما ولدته أمه. لكن الحياء سرعان ماعاوده مع انخفاض الشمس. فارتدى السروال على حين ظل نصفه الأعلى عاريا.

لم تكن عيناها تتابعان حركة الشمس. كانت تثبت نظرتها فوق الصورة

فى الصلصففة. فف الففف الرومافى كان فففا مطبقاف مزموماف. زاوفة كل عفن
ملففة. واسمفا الفلافى فافب. لفس فففا أى ففرفر من البولفس. ربما كف
الرفل عن إرسال البلاغات.

أشاعف الطمأنفنة فى جسدها نوعاف من النشاط. نهضف من مكانها
وداسف فوق النفط المفعمء. لم فكن فرفءى إلا السروال الواسع. منفع الى
ءء كبفر. وفءعها عار قماف. كان الفواء رغم انعدامه فففل بشكل ما الى
ففء الإبط. رففف ذراعفها الى أعلى ففسففر بعض الأرففاح. فراكم النفط
حول فصرها ففء أءكمف رفف الحزام. أراءف أن ففرش زاوفة كل عفن،
ففن فءكرف ففءة أن الظماف بفرف فوفها.

أسفءارف لفبفء عن الزفافة. وفى الاسفءارة أصبفء الشمس فى
عففها قماف. لم فسفع أن ففطو ففو البفء. بءا الكون من حولها مشفعلا
بنار حمراء. ولا أثر للرفل. كان فلك أمر طففعى فهو ففففى ففن فشاء.
وفعوء مفى فشاء، وقد ففب سفع سفن، وعففها أن ففففره بفكم القانون.

بءا ففاب الرفل عاففا، مع طوفان النفط، فمكن لأى شئ أن ففب فى
غمضة عفن. فارج العفة مفاشرة كان الشلال ففءق كأفما العاصفة فبءاف من
فءفء.

ففن رففف قمفها لفبفءاز العفة رأف الأزمل راقءاف. من حول رأسه فزام
الحقفبة ملفوفا على شكل عقءة. فءق فى جسدها إءساس بالألفة. كأفما هى
فرف الرفل الفافب، وقد عاد مفنكرا على هفئة الأزمل.

ربما كان ثمة شئ قد حدث. أصبح للأزميل الحديدى وجود إنسانى، بدد الوحشة، وامتدت يدها اليه، تربت عليه فوق صدرها. كالأم تعثر على طفلها المفقود. وكأنما الأزميل كان يتحرك وحده. فانزلق الى الأرض. يحفر فيها برأسه المديبة الصغيرة، بإصرار عجيب. راح يحفر بإصرار وعناد. كأنما هو طفل يبحث عن أمه، ويدرك عن يقين أنها هناك، راقدة فى تلك الحفرة، فى بطن الأرض.

– ألا تكفين عن البحث؟

فاجأها صوته. ثبتت فى موضعها متجمدة. سقط الأزميل من يدها. برزت الأوردة الزرقاء فوق يديها المشققتين. أدركت وهو ينظر اليها ان نهديها عاريان. حوطت صدرها بالملاءة وفى عينيها النعاس. لم تكن صاحبة تماما، ولا تعرف إن كان هو زوجها أم رجل غريب. لو كان هو زوجها فمن الأفضل أن تصرخ. فهي لا تذكر أنها تزوجت رجلا له هذا الشكل. وإذا كان الرجل غريبا فسوف يمضى الى حال سبيله دون حاجة الى الصراخ.

لم يكن صوتها حين صرخت ينتمى الى عالم البشر. ربما لم تفتح فيها على الاطلاق، خشية امتلأه بذرات النفط. ومع ذلك رأت النسوة يتجمعن حولها، ومن فوق رؤوسهن البراميل. أدركت أنها تحت المراقبة، ويمكن للأذان أن تسمع صوتها وإن لم يخرج، وعيونهن كانت ترمقها بنوع من الغضب.

– أنت امرأة مثلنا؟ لماذا لاتحملين البرميل؟!

أرادت أن تثبت أنها ليست مثلهن، وإنه لا يمكن أن تعيش وتموت مثل حيوان.

- عندي هدف آخر!

- ماذا يا أختي؟

وتذكرت كل شيء دفعة واحدة. راحت تحكى الحكاية وراء الحكاية. بدأت بخالتها والسيدة زينب والسيدة مريم العذراء، وأنها أرادت أن تكون نبية لتشفى الناس من الأمراض مثل الإلهة سخمت.

رنت كلمة «سخمت» فى الجو المعفر بذرات النفط. انقلب حرف التاء الى الطاء، وما أن سمعت النسوة الإسم حتى ربطن رؤوسهن بالمناديل السوداء ويد أن يلطنن خدودهن ويصرخن فى نفس واحد.

- سخماط!

لم يكن وقوع الأمر على هذا النحو بالأمر الغريب. كان أشبه ما يكون بالعودة الى الطفولة، وخالتها تربط رأسها بالمنديل الأسود، وتسب كل من يقترب منها، وإذا كانت نساء هذه القرية من نوع خالتها فلا بد أن الطوفان الأسود أمر طبيعى. وامتلاً قلبها باليأس، وعيناها تتحركان وتدوران بحثاً عن الفرار.

رأت أمامها امرأة من الجارات، تحمل البرميل فوق رأسها، وجهها

يختفى تماما وراء حجاب أسود لا يطل منها إلا نصف عين، فانفجرت فيها مثل بركان.

- أنت لست بقرة عمياء تدور فى ساقيه؟ ينبغي أن يكون من حقك أن ترى ماحولك. أليس كذلك؟ أم أنك اقترفت جريمة فى الخفاء فلم يعد فى مقدورك أن تظهرى أمام أهل القرية بوجهك المكشوف؟
- لا أريد أن أكشف وجهى.

- أهنأك سبب يدعوك لكل هذا التخفى.

- ليس هناك أى سبب يدعونى لكشف وجهى.

- تستطيعين على الأقل رؤية العالم.

- رؤية ماذا؟

- العالم، ألا يكفى أن ترى العالم؟ ألم تشعرى برغبة فى رؤية العالم من حولك؟

- كانت عندى رغبة، ثم سئمت كل شئ.

- اسمعى يا اختى! حتى البقرة تنزع الرباط من فوق عينيها والحيوانات فى القفص ترفس.

- كنت أرفس كثيرا حتى سئمت الرفس أيضا.

- غيرت الجارة لهجتها فجأة وقالت برقة.

- سمعناك تصرخين؟ أكان يضربك؟

- يضربنى؟

فى صوتها وهى تسأل دهشة. أكان الرجل يضربها برأس الأزميل؟ سيطر عليها الغضب. كانت تريد إلا يعرف أحد. لكن يبدو أن هذه القرية لا يخفى عنها شئ. والرقابة محكمة. أرادت أن تخفى وجهها، ألا تعترف أبدا أنه ضربها. ماذا لو عرف أهل القرية أنها مثل غيرها من النساء؟ سرت القشعريرة فى جسدها. كانت بشرتها قد تخرشت من الضرب. والجفاف فى حلقها. أرادت ان تترك جسمها يسقط الى الأرض. لكن من حولها عيون مفتوحة، تنتظر سقوطها، فإن سقطت مرة واحدة فسوف يسهل من بعد أى شئ. من الأفضل أن تعترف. وليس فى مقدورها الهرب.

كان الرجل قد عاد. رآته يقترب منها من الخلف. ضغط ركبته اليمنى فى ظهرها، ثم حوطها بذراع واحدة. انبعثت رائحة نפט راكد من تحت إبطه. مرر أصابعه المشققة صعودا وهبوطا فوق عمودها الفقرى. بقيت مكانها متصلبه، ثم ندت عنها صرخة الألم حين ضغط بقسوة على الفقرة الأخيرة.

- أشعرين بلذة.

- لا.

ضحك الرجل، وبدا أنه يداعيها، تمهيدا لشئ. وإن كانت حركته مفاجئة، كأنما هى طبيعية، أو ربما أصابعه انزلقت وحدها على نحو برئ.

استدارت لتواجهه. لم تكن ثمة براعة، ولاهى أيضا شهوة الحب. كان يدفعها الى الركوع، ومن بعد ان تركع يصبح كل شئ ممكنا، رأت أن النوم هو المهرب الوحيد. ربما كانت نائمة فعلا، لأن أنفاسها كان لها صوت مرتفع. وساقاها وذراعاها فى حالة انتفاض. أكانت غاضبة. ربما، فهذا الرجل يحاول على الدوام أن يفسد عليها النوم. وهو ينجح فى ذلك على الدوام حين يشاء. أما هو فيغظ فى النوم دون أن يقلقه شئ.

حين تقلبت فى نومها علقّت ذرات النفط بأذنيها. وحول العينين. التصقت ذرة فى الزاوية فأزاحتها بطرف إصبعها. مدت ذراعها فى الظلمة تبحث عن الزجاجاة، لم تكن هناك. كان الرجل راقدا وجهه للحائط وظهره ناحيتها. بدا ظهره أقل إيلاما من وجهه، وأصبح الأمر محتملا بعض الشئ. لكن الليل طويل لا يريد أن ينتهى، والأرق كالمطرقة تدق فى الرأس. ربطت المنديل وعقدته فوق جبينها كما كانت ترى خالتها تفعل. أغمضت عينيها وجعلت أنفاسها منتظمة. ثنت ركبتيها وتكورت حول نفسها كالجنين. حاولت أن تتذكر وجه أمها قبل أن تلدها. تتبعت الطريق الذى مشت فيه كل يوم من البيت للمدرسة. كان هناك شجر ونهر طويل. رأت مكانها المعتاد فوق الجسر حين كانت تجلس ساعة الغروب، تنتظر ظهور الأضواء. راحت تعدد أسماء النجوم. بدأت بزحل والمشتري وانتهت بالزهرة والمجرة. حاولت أن تعد على أصابعها أسماء الإلهات القديمات، بدأت بنون ونمو وانتهت بنوت وسخمت.

لكن الأرق لم يفارقها. ظل كالمطرقة يدق رأسها. حركت عينيها ناحية الرجل. رآته يغطى وجهه بالصحيفة. كان لا يزال نائما أو ربما كان يقرأ الأخبار ثم نام وهو يقرأ. أنفاسه منتظمة كالشخير. خشخشة الورق تحت ضربات الريح. ونباح الكلاب من بعيد، ولهات النسوة، أعناقهن تطلقن تحت تحت البراميل، لكن هدير الشلال المتدفق يكتسح كل الأصوات. والأرق كالشاكوش يدق رأسها، والساعة فوق معصمها تدق، والدقات تحت ضلوعها، وأنفاسها، كلها تدق فى أذنيها.

أطبقت جفونها فى محاولة أخيرة للنوم، لكن ما أن فقدت الرؤية حتى سقطت فيما يشبه البثر. وكل الأصوات توقفت. تجمد الزمن. لم تعد الساعة فوق معصمها تصدر أى صوت. زحفت ذرات النفط تحت القرص وغطت العقربين. عقرب الثوانى أيضا كف عن الحركة. لم يكن شئ يتحرك إلا أوراق الصحيفة تنقلب وحدها تحت حركة الهواء. تكشف كل صفحة عن عناوين بالخط الأحمر والأسود.



- صاحب الجلالة يتبرع بثلاثة ملايين دولار لمديقة الحيوان فى القطب الشمالى.

- قتل نصف مليون فى حرب النفط.

- حرم صاحب الجلالة توزيع الحلوى فى عيد الطفولة.

- إطلاق الرصاص على امرأة ضبطت فى الشارع وهى تمشى بوجه مكشوف.

- بيع الديون الخارجية بالمزاد.

- وزير النفط يحصل على رشوة أكبر من ميزانية الدفاع.

- بيع المخدرات فى فصول المدارس.

- انتشار فيروس الإيدز بين الأطفال.

- من الإلحاد إلى الإيمان ومن الشك إلى اليقين. بقلم رئيس الصحوة الدينية ورئيس الحزب الشيوعى سابقا.

- مصرع ثلاثة من النسوة فى الطابور أمام المخبز.

- ثمانية رجال يغتصبون طفلة فى المدرسة.

- أم تذبح أطفالها الأربعة فى عيد الأم ثم تنتحر.

- رجل مفقود يعود بعد سبع سنوات فلا يجد زوجته. مطلوب العثور عليها حية أو ميتة. ممنوع ايوائها أو التستر عليها.

- معلومات جديدة يحصل عليها البوليس عن المرأة التى خرجت فى إجازة. كانت المرأة شديدة الشغف بالبحث عن الموميات كنوع من الترفيه.



مضى الوقت وهى تحملق فى كلمة «الترفيه». لابد أن النوم غلبها لأن

عقلها كلن متوقفا. الترفيه. لم تعرف معنى الكلمة. والشمس بدأت تصعد.
ربما خرج الرجل إلى الشركة، وحاملات البراميل ليس لهن صوت. نهضت
على أطراف أصابعها. زحفت يدها تحت الفراش وأخرجت الحذاء. كان مملوفا
بالنفط حتى الحافة. أفرغته ونفضت كل فردة بالأخرى. وضعت الأزميل فى
الحقيبة. والخريطة. علقت الحزام فوق كتفها. وانطلقت قبل أن تلاحظها عين.
أغلقت جفونها وهى تجرى، كأنما إغماض عينيها يخفيها عن الأعين.

كان الخلاص يبدو وشيكاً، والهروب أكثر يسراً لو أنها استمرت فى عدم
الرؤية. لكن فكرة جديدة طرأت على عقلها. يمكنها أن تخفى وجهها عن
الانتظار تماماً، دون أن يتعرف على وجهها أحد. من حق المرأة أن تخفى
وجهها بالكامل دون أن يطاردها أحد.

لكن الأمر فى حالتها كان مختلفاً. فهى امرأة مكشوفة الوجه. الصحيفة
نشرت صورتها واسمها الثلاثى وعنوانها. غرفتها أيضاً ظهرت فى الصورة،
والسرير الخشبي الساقط الألواح. واللمبة المتهالكة فوق مكتب يعلوه
الغبار. وكتاب مفتوح تطل منه رأس مومياء. ودرج فى المكتب به بعض
قطع النقود. ودفتر توفير فى البنك بلا رصيد. ثم هناك الحبل المتدلى
من السقف، كأنما جاهز للالتفاف حول العنق. والذباب الميت الملتصق به.
وفى نهايته تتدلى اللبة المحروقة. ثم الصمت. أجل الصمت الذى يصفر فى
الأذنين كالريح، أو ذلك الشخير المعتاد لرجل يغط فى النوم.



كان زوجا مثاليا يوفر لها السكنينة، وكل شئ يشير إلى رغبته الصادقة في استمرار الزواج.

قالها رجل البوليس وهو يدور بالكرسى، يهز يده فى الهواء ممسكا بهراوة طويلة. أشار بها الى المكتب.

- لاشئ يشير الاشتباه إلا رأس الموميا، هذى! أتعرف رأس من هذه؟

- رأس أم الهول.

كان رئيسها فى العمل يرد بصوت مملوء بالثقة، فيضغط على كلمة «أم الهول» بفكيه وأسنانه، ثم ينفث الدخان فى السقف، والغليون بين شفتيه. رمق رجل البوليس بطرف عينه، وراح يؤكد بصوت عال.

- نعم أم الهول.

- أم الهول؟ لم نسمع بها من قبل؟

- عدم السماع بها لايعنى عدم وجودها.

- أهى زوجة أبو الهول؟

لم يعد رجل البوليس مستقرا فى الكرسى. يدور به حول نفسه والهراوة فى يده. رفع ذراعه وكادت تهبط فوق رأس أم الهول. لكن رئيسها فى العمل كان جالسا مستقرا. ينفث الدخان من فتحات أنفه وفمه. أذناه أيضا خرج منهما الدخان. الغليون الأسود يلتوى إلى الأمام بزاوية حادة، وعنقه

أيضا يلتوى بالزاوية نفسها. عيناه الى أعلى نصف مفتوحتين. يرمق رجل البوليس بطرف عين.

- بعد أن اغتصب أبو الهول العرش أمر بإزالة النهدين من التمثال، وإضافة اللحية.

- اللحية؟!

- نعم، لحية مستعارة، أنظر!

مد رجل البوليس يده بالهراوة وفحص شعر اللحية المتدلّية من الذقن. انتهز رئيسها في العمل الفرصة وراح يستعرض الكثير من علمه بالحفريات.

- صانعو التماثيل سخروا أنفسهم لخدمة الإله الجديد، وتغير الفن بتغير الحكم. حتى شكل العيون تغير، فالعين المستقيمة ذات الخطوط المباشرة أصبحت خطوط ملتوية ذات نظرة مزدوجة.

- نظرة مزدوجة؟ كيف ذلك؟

- مثلاً حين تنظر بعينك اليمنى الى زوجتك، والى امرأة أخرى بالعين اليسرى.

- هذا أمر طبيعي، أليس كذلك؟

- كان غير طبيعي حينئذ. وقد تغيرت الشفتان أيضاً لتتحول الابتسامة إلى تقطبية، وكانت اليد مفتوحة فأصبحت مغلقة والإصابع ممسكة بهراوة.

خرجت كلمة هراوة من بين شفتيه مع دخان الغليون، فانتفض رجل البوليس واقفاً دونما سبب، مخفياً الهراوة في يده وراء ظهره.

- ماذا تعنى من كل ذلك؟

- أصبحت أم الهول هى أبو الهول، تغيرت الميم الى باء، وكان الطوفان يكتسح كل شئ، والزراعة تموت، ومياه الأنهر تتحول الى سائل أسود له طعم حادق كالمالح، وأمر الإله الجديد بإزالة النهدين من فوق التماثيل وإضافة عضو الذكر.

تصلبت أصابع رجل البوليس وهو يدق فوق الآلة

لم يكن بمقدوره أن يدق كلمة العضو. واستدار داخل الكرسي بحركة دائرية. لم تظهر الحركة فى الصورة داخل الصحيفة. لكنها استطاعت أن ترى كل شئ وهى نائمة، عيناها نصف مغمضتين. وفى الحلم تبدو لها الحقيقة أكثر وضوحا.



فى الحلم كانت تبحث عن شئ تقوله لزوجها، فقد انقطع الحديث بينهما منذ بدأ. لم يكن هناك طريقة لجذبه اليها إلا الإختفاء. كانت فى حاجة أيضا إلى جذب الآخرين، والأخريات من النسوة. تدخل عليهن كل يوم فى المكتب. شفتاها تنفرجان عن ابتسامة أو تكاد، لولا التكشيرة فوق جبينهن، وعيونهن المنكسة فوق الكتاب، أو وجه صاحب الجلالة يتدلى فوق رؤوسهن، أو صورة الإله إخناتون قبل إزالة النهدين، أو إبنة أم الهول التى نزعته عن أمها اللحية المستعارة وكشفت عن أنها امرأة. (مريت - را) إبنة حتشبسوت؟!!

كانت تفتح الباب كل يوم وتطل على تمثالها. الابنة الوحيدة التى تعرفت على وجه أمها. تجلس الى مكتبها تتطلع الى وجوه النسوة. لون البشرة أصفر كأنما من الصلصال. رؤوسهن نحتت من الحجر الجيرى. يغوص فى أعماقها إدراك أنها واحدة منهن. تبتلع لعبا مرا يفيض كراهية للذات. لكن عيد صاحب الجلالة يأتى وتنتشر الأضواء. صوت الغناء والموسيقى يتردد فى الأذان. يرتدى الأطفال الملابس الجديدة. العيد فى الشوارع غيره فى البيوت. لاشئ فى البيوت إلا أزواج يخفون وجوههم وراء الصحف. يلفون رؤوسهم بسحائب من الدخان. تقف الزوجات فى المطبخ. يسلقن الفراخ المثلجة لها رؤوس من البلاستيك. علب السردين من الصفيح الممغنط. بعد الأكل هناك سفينة للنزهة تبحر ولا تعود. فى الطابور الطويل تسقط الشهداء. وفى نهاية العيد هناك الأتوبيس المتهالك الذى يسقط بمن فيه. قبل انصرام اليوم تذبح الأم أطفالها ثم تلقى بنفسها فى اليم. لكن ما أحد يرغب فى ارتكاب معصية، والكل يؤدي الفرائض. يرسم فوق وجهه علامة الإبتهاج. يرسمها بالقلم الملون فوق بشرة مشققة. وجوه كثيرة تطل فى العيد من عربات الأتوبيس. وفوق المراجيح. وفى الاحتفالات الرسمية. لم يكن هناك شئ يبده الفرحة إلا وجه امرأة مكشوف.



- أعتقد أنها ارتكبت معصية؟

- بالطبع، هذا طبيعى.

- ماذا تعنى؟

- بصرف النظر عن كشف الوجه فالنسوة بالطبيعة آثمات، إن كيدهن عظيم.

إختلط عليها الصوت. لم تعرف أهو زوجها أو رئيسها فى العمل. كان الوجه مثل كل الرجال الآخرين. مكشوف مع جحوظ العينين. يبدو كمن صبحا من النوم فجأة. يظهر على الدوام غيرة عليها من الرجال. قد يغار من صداقة تنشأ بينهما وبين الكائنات الأخرى، كالزواحف مثلا. عدااء قديم غير مفهوم بينه وبين السحلية. وهو من النوع المكتوم، كعادة الأزواج أو الرؤساء. لا يطلع أحدا على خلجات نفسه. إلا أمام رجل البوليس فى التحقيق، حين بدأ يعترف لأول مرة.

- يراودنى الشك.

- لم نسمع منك هذا من قبل.

- هذا العيد مثلا ..

- ماذا فى العيد؟

- يجعلنا نعتقد أن شيئا ما موجود، بينما لا وجود له، ولهذا فإننى أفضل العمل فى شركة النفط.

- النفط؟

- نعم، إنه سائل بلا قوام لكنه يبعث أكثر على الطمأنينة.

- لا أفهمك.
- لا أستطيع التعبير عن نفسي بصورة أدق.
- أتعنى أنك متورط مع المرأة؟
- لا، ولكن حين يزداد التدفق فأنت نفسك تصبح مثل النفط، وهكذا يتبدد القلق بشأن الموت.
- لابد أنك مقتنع بما تقول، وأحسب أنك أقنعتها، فخرجت في إجازة أليس كذلك؟
- لم تكن في حاجة إلى إقناع منى.
- كيف؟
- اعتقد أن فيها شئ يشبه النفط مثل سائر النسوة.



أمسكت رأسها بيديها الإثنتين. لأول مرة تسمع رأيها فيها وهي غائبة. كان حضورها الدائم يحجب الحقيقة. وأصبح الغياب في حد ذاته هدفا. قد يكشف فيه عن خلجات نفسه. كان بينهما ما يشبه الثأر، يرتدى ثوبا آخر أكثر رقة. وينتهي الحوار بينهما بالصمت. تخرج من البيت إلى العمل كل يوم كأنما تخرج من قبضة لتسقط في قبضة أخرى. والسقف واحد يشبه القبو. تشد نفسها من القبو لتصبح تحت قبو آخر. والضجة تشبه الصمت. لم تكن طلبت إجازة في حياتها قط. وهي إجازة لم تعلن عنها لأحد،

لكن الحسد ظهر على الفور فى عيون النسوة. يتخفى تحت طبقة من اللوم، وكلهن رغبة فى المعصية، يضقن ذرعا بالفضيلة، لولا أن طلب الإجازة كان يستوجب التصريح، وجرأة غير مسبقة للحب.

– الحب؟! –

أجل، كان يمكن لقلبها أن يخفق، فالأمر بسيط للغاية. والحب لم يكن معدوما بينها وبين الرجل. كان يربطهما بقوة الى حد وقوع خصام كل يوم. ولا فكاك من التواجد معا تحت سقف واحد.

– كيف كانت العلاقة بينكما؟

– شرعية بالطبع.

– أهنأك عقد مكتوب؟

– بالطبع.

– من أى نوع؟

– عقد عمل وزواج.

تتسع عيننا رجل البوليس ويشتد جحوظهما. ثم يدور بالكبرى، «والنتى» يدور حول نفسه، وتستقر عيناه فى السقف.

– أتعنى أنها كانت تعمل عندك؟

– كلنا نفعل ذلك، أليس كذلك؟

- لكن نحن ندفع شيئاً على الأقل.

- لزوجاتنا؟

- لعشيقاتنا على الأقل، أليس كذلك؟

لم تكن بها رغبة لمتابعة التحقيق. بدا لها الهروب نوعاً من المستحيل. حركت قدميها فوق الأرض فلم تتقدم خطوة واحدة. كان النفط قد امتص قوتها، وانتهى الرجل من ملء البرميل. وقف ينتظرها وهي لا تتحرك. راح يحدق فيها طويلاً، ثم رفع ذراعه إلى أعلى.

كانت لديها فكرة المقاومة، ورد الصفعة بالصفعة. لكن ذراعها ظلت ملتصقة بجسمها. ربما هي لزوجة النفط تجعل الأشياء تلتصق. أو لأن حركة ذراعه جاءت مباغتة، ولم يكن أمامها وقت للحركة. في أعماقها أرادت الانقضاض عليه. لم يتحرك فيها شيء إلا الفكين. وانطلقت الصرخة من الحلق.

- لا تصرخي.

- أتضربني؟

- ماعليك إلا حمل البرميل؟

بدت في وقفعتها كاملة الخضوع. لم تظهر مقاومة ما. كانت في حالة أشبه بالنوم، أو أن الصفعة غير المتوقعة انتزعت منها إرادتها جعلتها تبرك كالجمل. وضع الحواية فوق رأسها ومن فوقها البرميل. وكان عليها أن تمضي.

قدما مع النسوة الى الشركة، وكل واحدة منهن تقول كلمة، لمجرد الثثرة فى الطريق.

– أتفهمين؟ لن يضريك إذا واصلت العمل.

– هل أنت عصيتِ يا أختى؟

– ليس من الضرورى أن تحدث المعصية، يكفى أن تفكرى فيها.

– أحيانا يكون الفكر أخطر.

واصلت السير بعنق ملتوى وأنفاسها تلهث. يتقلص صدرها هبوطا وصعودا مع حركة التنفس. تدفع بقمها المزموم ذرات النفط المتطايرة حولها، تنفخها بعيدا عن وجهها. قدماها مشدودتان إلى الأرض، تغوصان الى ماتحت الركبتين. تركت نفسها تغوص. لاشئ امامها إلا أن تغوص. أن تصل إلى القاع، ومن بعد القاع لا يكون هناك طريق آخر الا الصعود.

– منذ جئت لم آخذ أجرا!

– ألا يكفيك أن أتستر عليك؟

أرهفت السمع للكلمة «أتستر»، اتسعت عيناها بزواياها الملتهبة، لم يكن هدفها الستر. كان لها هدف آخر. عن يقين كان لها وان لم تعرف ماذا كان. قدماها تتحركان دون أن تخطو فوق الأرض شيئا. والهواء لا يكفى لشهيق عميق. تورم قدماها وتساقط عنهما الجلد. زحف النفط تحت أظافرها كالطين الأسود. البرميل فوق رأسها ثقيل. يسخن دماغها تحت

الشمس. شفتاها زرقاوتان مفتوحتان وأنفاسها متلاحقة. ضغطت بأسنانها على شفتها السفلى فانفجر منها الدم، لونه أزرق ينساب فوق ذقنها ساخنا. له طعم حادق على طرف لسانها. فوق سطح البركة رأت صورتها منعكسة. كالشبح الهائم على وجه الأرض. خيل إليها أنها تصرخ.

– النجدة!

حركت عنقها ناحية الرجل. لم يعد يسمعها. وإن سمع الصوت لا يبدو عليه الفهم. يحملق فيها بنظرة لم ترها من قبل. أي فكر في قتلها؟ رفعت ذراعها وهمت بإلقاء البرميل فوق رأسه. بدت لها الحركة مشروعة تماما. مجرد دفاعا عن النفس. قبل أن ترتفع ذراعها عاودت النظر في عينيه، ثم تراجعت الى الوراء. عيناه لم ترهما أبدا بهذا الشكل. لم تكن الرعدة ظاهرة. لا شيء فيهما يعبر عن الخوف. لكن كل شيء فيه كان كأنما مات من الخوف.

امتدت يدها وأمسكت يده. تشابكت أصابعهما. حوطها بذراع واحدة وحوطته بذراعيها الإثنتين. أغمضت عينيهما، وكان هو مغمض العينين. كانا يسيران متعانقين، لا يريان الأرض تحت أقدامهما. يغوصان معا إلى أغوار البركة كأنما يسقطان في قبضة قوة أكبر منهما، لا يستطيعان الفكاك منها.

في تلك اللحظة أصبح كل منهما يمسك بجسم الآخر. يشتد التماسك.

يصبح الجسدان كتلة واحدة تتشبت بأجزائها ، لايبغى الانفصال عن جزء منها.

- أكان ذلك هو الحب؟

ربما كان، لأنها لم تسمع صوت النسوة. كانت مغمضة العينين، غائبة فيما يشبه الإغماء. ثم بدأت أصوات النسوة تدنو منها. مجرد أصوات بلا أجسام. أسندت رأسها فوق حافة البركة، كأنما تهم أن تأخذ شربة ماء، أو تقذف القصة من حلقها. سمعت صوتها يخرج من جوفها كأنما تتقيأ. تخفف صدرها من الألم وبدأت الأضواء تظهر. كان الطابور يتحرك من بعيد فوق الخط الفاصل بين السماء والأرض. أشباح سوداء فوق رؤوسهن البراميل. يقتربن منها والملامح تزداد وضوحا.

- ماذا تفعلين هنا يا أختى؟

رأت المرأة واقفة أمامها تحت عباة سوداء لا يظهر منها شئ.

- أنا؟

- نعم أنت؟ من غيرك؟

- أنا باحثة فى علم الحفريات.

دوت ضحكة واحدة تبعثها ضحكات خافتة مكتومة.

- ألم تحبلى يا أختى؟

لطمت الكلمة وجهها مثل الصفعة. تحبلى؟ أ يكون ذلك هو سبب

احتجازها هنا؟ كانت قد أضربت عن الحبل منذ ماتت أمها وهي تلدها. لم تكن تعرف ما جدوى الحبل. كل النساء يحبلن.

- هل ينقلب العالم إذا كفت امرأة واحدة عن الحبل؟!

- أيتها الحمقاء!

تجردت فجأة من الظلمة. ظهر ضوء من بعيد. حملت ناحية المرأة. ثم انحنى جالسة فوق الأرض. تحت إلتها عشرت على شئ صلب. كان هو الأزميل، رأسه ملفوف بحزام الحقيبة، مشدود حول عنقه كحبل المشنقة.

- من منا الحمقاء؟

لم يكن هناك صوت. مجرد غمغمة كالصمت. أو ذرات سابحة فى الجو. واصلت الحديث وهي تضرب رأس الأزميل فى الأرض.

- أنا حمقاء؟ ألا يشغلك إلا الحبل؟ وأنا ماذا يشغلنى؟! أجل، أنا باحثة، باحثة عن ماذا؟ أجل أبحث عن أشياء لاتعرفيها. «نمو» إلهة المياه الأولى، وإنانا الإلهة الأم، وسخمت.

- سخماط؟

- أليس هنا دليل جهلك؟ خير لك أن تنصرفى عنى وتحملى برميلك الى الشركة. ستظل النسوة على حالهن الى يوم القيامة. أليس هناك من يقاوم النفط؟ ألم تفكرين أبدا فى التضامن؟ فكرى فى الأمر. لن تلومى إلا

نفسك إذا دفنت فى هذه البركة. سوف يسيطر النفط على كل شئ، ويشق طريقه الى كل مكان، ماذا حدث؟ لماذا لا تنطقين؟!

بدلا من أن ترد المرأة اختفت على نحو بدا طبيعيا. استدارت دون أن تخلف ورعها صوتا، ولا أى أثر لقدميها على الأرض.

- أتهربين دون كلمة واحدة؟!

صرخت بصوت عال متخاذل غير مسموع على الإطلاق. كفت عن الحركة وأعدت الأزميل الى الحقيبة. لسانها بدأ يحتك بسقف حلقها. صوت الاحتكاك فى أذنيها مسموع. لمحت الزجاجة فجأة فوق الرف. كانت جافة تماما. رفعتها إلى فمها تهزها عدة مرات. لم تسقط قطرة واحدة. انخرطت فى نشيج بلا صوت. بلا دموع بلا حزن، أو يأس أو أى شئ. لم تحس شيئا على الإطلاق. كانت امرأة أخرى تلك التى تنشج وليست هى.

إلتصقت بالأرض تتظاهر بالموت. تتكور حول نفسها أملا فى النجاة. حركت عينيها قليلا ناحية الباب. كان الرجل واقفا على العتبة منكوش الشعر. هل كان يتصنت عليها؟ تركت دموعها تهبط قبل أن تضيع الفرصة. لم يكن البكاء مجديا. تحركت شفتاها بما يشبه التردد. ربما كانت الابتسامة أفضل، لم تشعر بوخز الضمير، يمكنها أن تبتسم فى وجهه رغم كل شئ، لولا الإعياء الشديد، ونوع من التجميل كالشلال يسرى فى شفتيها.

كان وجهه للحائط وظهره ناحيتها. بدت الابتسامة غير ضرورية. كان

البرميل ساخنا بفعل الشمس. وأنفاسها تتقطع مثل بقرة تحتضر. لوت
عنقها الى الناحية الأخرى للتخفيف من الثقل. فتحت عينيهما لحظة في
مواجهة الشمس. ثم أغلقتها على الفور بأحكام شديد.

حين وصلت الشركة كان وجهها مثل سمكة مشوية. خذاها عظامها
متفحمة. فوق رأسها تحت قاع البرميل حفرة عميقة. في مؤخرة عنقها ورم
ينز سائلا أسود. جلبابها تعلوه البقع، والرائحة تفوح مع العرق.

رمقها رئيسها في العمل من بين أطراف جفونه المغلقة.

- عليك بارتداء ثوب نظيف وضعى بعض العطر تحت الإبط.

- نعم،

- حان وقت وصول جلالته ولا نريد أن نؤذى أنف جلالته، أليس كذلك؟

لم تكن عضلات لسانها تطاوعها للرد، وخرج صوتها مكتوما.

- فى ليلة . . . العيد . . . طلع . . . البدر . . .

تذكرت أغنية فى الطفولة، كانت تغنيها مع البنات فى المدرسة، حين
كان يصل الرئيس، ويغنين فى نفس واحد: طلع البدر علينا، ومن خلفه تقبل
حرم الرئيس ترتدى دوائر من الضوء حول العنق واليدين والرجلين. من خلفها
النسوة يتسابقن فوق الكعوب الرفيعة. ينكفئن على وجوههن وأردافهن
تهتز من الخلف.

- طلع البدر علينا . . .

لم تكن تعرف لماذا ينثنى عنقها ويلتوى الى الداخل. بدت لو كانت تنحنى لأداء التحية، تخفى الورم البارز بين طيات العنق، تمسح الجلد بكفها تمحو البقع السوداء.

- لماذا كانت تشعر بكل هذا الحزى؟

كانت تظن أنها ضحية العيد، وعليها أن تخفى أثر الدم بعد الذبح. كان يمكن لها أن تواجه الحزى، لولا الرجل. أجل، لولاه ربما استطاعت أن تنجو، وماذا بعد أن تنجو؟

خطر لها السؤال فجأة، ولم تعرف ماذا تفعل لو قدر لها أن تنجو.
- سأكتب قصة حياتى.

سمعت الرجل يضحك بصوت كالسعال. كان منثنيا فوق البرميل يملأه، فارتج البرميل بالصوت. سمعت القرقعة داخل بطنه الممتلى فأدركت أنه النفط أيضا يضحك.

- أتفكرين فى الكتابة حقا؟

- أعنى، فى غير أوقات العمل، قد يهبط الوحى.

- الوحى؟

- أجل قد يهبط الوحى أحيانا على راعى بقر أو دودة نطف.

- هذا النفط يتغلب على أى وحى وإن هبط من السماء.

- قد يختلف الأمر، حين يأتي الوحي من بطن الأرض.

- ماذا تقصدين يا مره؟

لم يكن عقلها قادرا على الرد، وبدأ الحوار بلا معنى. السخونة في رأسها تشتد، والوجع في مؤخرة الدماغ كالطرقة يدق. شدت المنديل وعقدته فوق جبينها، لم تعرف من أى حفرة في رأسها خرجت فكرة الكتابة.

كان الوحي ينزل دون حاجة الى كتابة أو قراءة. يرفع صاحب الجلالة عينيه الى أعلى فإذا بالوحي يهبط من السماء كالمطر. يعبثونه في الزجاجات. وفي العيد يصرفونه مع المنحة، يحصل الرجل على زجاجة كاملة لنفسه، ولإمرأته النصف. لم يكن للمرأة أن تتسلم نصيبها بنفسها، ولا بد من زوج ينوب عنها أو وكيل آخر.

- خداع الذات لا يفيد شيئا يا مره، ثم إن مثل هذه الأوهام لا جدوى منها

- ماذا تعنى؟

- الكتابة مثلا ليست إلا نوعا من الوهم. وإذا كان صاحب الجلالة لا يكتب ولا يقرأ، وجميع الأنبياء، لم يكونوا في حاجة الى الكتابة أو القراءة، ثم ماهو الفارق بين حمل القلم وحمل البرميل؟! هيا إنطقي! ولا تكوني غبية!

ثنت المرأة عنقها ولم ترد. كان الصمت شيئا طيبا للغاية، دفعها إلى اغلاق عينيها في يأس كامل.

رفعت البرميل فوق رأسها واندفعت الى الخارج. من الناحية الأخرى من
البركة هبت عاصفة جديدة. ليس أمامها إلا أن تمضى فى الطريق حتى
النهاية. لا يزال بعيدا عن عقول النسوة فكرة الكشف عن وجوهن. لقد حملن
البراميل قبل طلوع الشمس واختفين فى الظلمة.

امتدت ذراعها الى أعلى، وهزت البرميل بقوة. لم تنسكب منه إلا قطرة
متجمدة من النفط. كانت عيناها تتطلعان الى السماء. لم تر شيئا. قربت
أصابعها من أنفها فانبعثت رائحة الجاز العفن.

- ما الذى يحدث لو استمرت حياتها بهذا الشكل؟!

ربما تكون هناك مؤامرة. رئيس الشركة له بشرة حمراء، يرطن بلغة
أجنبية، وتقول الصحيفة أنه رجل كبير القلب. يتبادل البراميل مع صاحب
الجلالة علامة الحب. وفى هذه المنطقة الأثرية أيضا رفات الموتى. وحفريات
مقدسة من الآلهة القدامى. وبعض الإلهات من الزمن الحجري.

- أجل، تغيرت المقدسات مع هبوب العاصفة.

- ألا يوجد حفريات هنا فى بطن الأرض؟

- لا يوجد إلا النفط يا مره.

- ماهذا؟

- زجاجة اضافية فى عيد صاحب الجلالة. ألم أقل لك أنه كبير القلب

واسع الرحمة لا ينسى الرعية. ما رأيك فى جرعة صغيرة؟ لنحتفل معا بعيد جلالته.

إلتوى لسانها داخل حلقها. حركت قدميها فى الهواء مثل بقرة مربوطة الوثاق. هذا الرجل ليس زوجها وليس مندوب الشرطة. لماذا لا يفك وثاقها ويتركها تعود؟ إنها شابة فى ربيع العمر، وتحمل لقب «باحثة» ولها زوج ينتظرها

– سأملأ لك كأسا.

– أليس الشرب حراما؟

– مادمنا وحدنا ولا أحد يرانا، وإن كان الأمر يستوجب بعض الحرص.

أنهم يوزعون علينا هذه الزجاجات، ومعنى ذلك أن الشرب مباح ليلة العيد حتى يضرب مدفع الإمساك. هل أنت على قيد الحياة؟ أراك لا تتنفسين؟ خذى هذا الكأس، وإنسى كل شئ.

– سأنسى.

– أهذا وعد؟

هزت رأسها علامة الإيجاب. بدت ليلة العيد ملائمة تماما للهروب. بعد أن يشرب الرجل يفقد وعية. وليس عليها إلا أن تشتري تذكرة العودة. فتحت الحقيبة لتخرج النقود. لم يكن هناك شئ. قلبت البطانة وهزت الحقيبة. لم يسقط قرش واحد.

- أين النقود؟

- ماذا تقولين؟

- أنا أعمل وأستحق بعض الأجر.

- أود أن أسألك سؤالاً صغيراً لمجرد إرضاء فضولى.

- نعم.

- أأست أوفر لك كل شئ حتى الحب؟ هل ينقصك شئ؟ هيا انطقى ولا تكونى جاحدة!

- أنت رجل مثالى، هذا صحيح، ولكن أنا أعمل طول النهار وجزء من الليل. من يدفع الأجر؟

- أجرك على الله.

- الله؟! ماذا تقول يا رجل؟

- ألا تؤمنين بوجود الله يا مره؟!

صوته أصبح غاضبا، والنبرة مهددة. كانت تطالبه بأجرها، فإذا به يطالبها بالإيمان. ما علاقة الإيمان بالأجر؟ لم تكن تعرف. لكن الوضع انقلب. أصبح هو صاحب الحق. وهى لم تعد لها طلب. أجلسها فى قفص الاتهام، وراح يدور حولها نافشا شعره، مزمجرا بالغضب.

- امرأة مثلك لا يمتلى قلبها بالإيمان، ماذا تستحق إلا الحرق فى النار! هيا انطقى ودافعى عن نفسك!

إلتوى لسانها فى حلقها وعجزت عن الرد. كانت مؤمنة تماما مثل الرجل

وأكثر. قلبها كبير، أكبر من قلبه، يتسع لإيمان أكبر من إيمانه، بل يشمل الآلهة القدامى أيضا، والإلهات. لكن ما علاقة الآلهة بالنقود؟ وهى امرأة تؤدي عملها بالكامل. تحمل فوق رأسها البرميل، فى شركة رسمية للمنقط، والعمل شاق، ازداد مشقة بعد قيام العاصفة، وكان يمكنها أن تتجنب كل هذه المشاق. ضريت بتقديمها الأرض وهى تصيح:

- كل هذه المشاق!

- ولماذا أتيت فى الأصل؟

تجمدت فى مكانها لا تتنطق. كان الرد واضحا لا يحتمل وضوحا أكثر، لقد جاءت لأنها عجزت عن الاستمرار هناك. أجل جاءت لتتجنب مشاقا أكثر، هذا كل ما فى الأمر.

- أهذا كل ما فى الأمر؟!

- نعم، كل ما فى الأمر.

بدا الأمر بسيطا غاية البساطة. انفرجت شفتاها عن تنهيدة عميقة تشبه الراحة. وانكفأت رأسها بحركة مباغته فوق صدرها كأنما تنام. لكن الحركة أيقظتها فانتبهت. كان رأسها ثقيلًا، والسخونة تتدفق من أعلى مع الثقل. كأنما تحمل قرص الشمس فى منتصف النهار، مع أن الدنيا ليل، والرجل راقدا الى جوارها مفتوح العينين.

- ألم تحصلى على إجازة؟!

- ماذا تعنى؟

- هذا أمر يقلق صاحب الجلالة ورئيس الشركة بطبيعة الحال.

- ألم تنجح امرأة واحدة فى الحصول على إجازة؟

- كانت هناك امرأة من أسرة فقيرة، وأهلها جميعا من اللصوص، قالوا إن عفريتنا ركبها، فالعفاريت تتبع الفقر، واللصوص تتبع العفاريت، ومع ذلك لم تنجح فى الهرب.

- كيف كان ذلك؟

- نشرت الصحف صورتها وأعادوها قبل أن تجتاز الحدود.

- أتعنى أنه لم تهرب امرأة واحدة؟!

- ولا رجل واحد.

تهاوى جسدها وهى راقدة. كأنما تسقط فى نوم أعمق. تكورت حول نفسها مثل دودة النفط. أصبح وجهها بلون الأرض. ضغطت بيدها فوق صدرها، ثم انتفضت.

- لا يوجد نبض!

نهض الرجل من الفراش. بدأ يدلك قلبها بأطراف أصابعه. أخذتها الدهشة ولم تستطع الرفض. كان ينتهز فرصة غياب النبض ليدوس بإصبعه فوق نهداها. يمرره داخل الشق بين النهدين. كانت هناك طبقة متجمدة من النفط لها رائحة العرق. قلملت فيما يشبه الحرج.

- كنت أنوى الاستحمام، لكن-

- لا داعى للخرج فأنا لست رجلا غريبا.

كان القمر يطل فوق البركة بضوء شاحب. بقعة مستديرة من لون متهاالك
البياض فوق مساحة كالحة السواد. والنافذة مصنوعة من ألواح الخشب لها
مزلاج عريض، غمت فوقه طحالب النفط فاخضوضرت أطرافه. كانت النافذة
واطئة فيها شقوق، تطل من بينها عيون النسوة. ثلاثة أو أربعة يضحكن
بصوت مكتوم. واحدة من النسوة تتحدث الى جارتها فى البيت الملاصق.
تحكى لها ما يفعله معها زوجها فى الفراش. تقطع الحديث بضحكات
كالشهقات، ثم تجهش بالبكاء.

- عشر سنين مضت على زواجك ولم تحبلى؟

- أمر الله.

- بل هى ضرتك الملعونة، سحرت لك.

- أهو سحر إذن؟ يا للمصيبة!

- أنت أسعد حظا منى، ولك ضرة واحدة وأنا لى ثلاثة ضرائر، وما أن
أبطل سحر واحدة حتى يأتى سحر الأخرى.

- ومع ذلك حبلى أليس كذلك؟

صوتها يتسرب إليها من وراء الجدار يشبه صوت خالتها. كانت تلف
حول رأسها الطرحة السوداء وتخرج. تجوب الأزقة تلم الودع والقواقع،

وعظام الموتى من بطن الأرض. تصحنها فى الهون ومعها الشبة واللبن
الذكر. تشربها على الريق وقبل النوم. تبلل به وسادة زوجها وما بين
الفخذين. كان لكل عفريت من الجن حجاب خاص. يكتبه شيخ أعمى فى
غرفة مظلمة. كان الأعمى أكثر قدرة من المبصر على طرد العفاريت الجان.
وكان الشيخ الميت أكثر قدرة من الأعمى بطبيعة الحال. وتدفع المرأة قطعة
من الفضة أو فرخة مذبوحة. لم يكن للمرأة أن تحبل دون أن تدفع شيئا.
فى نهاية الليل انقطعت أصوات النسوة. جاء الصباح بشعاع أحمر يلسع
مثل لسان من اللهب.

– أرجوك، هل لى فى شربة ماء؟

لا بد أنه كان غائبا فى النعاس. لم تسمع أى رد. جليابه ممزق من الصدر.
غارق فى عرق أسود كالدم المتجمد. ذرات النفط تلتصق بالشعر، وشفته
مشققتان مثل أرض قحط.

– ألم تسمعنى؟ قطرة واحدة لو سمحت.

صوتها جاف، وجسدها يرتعد بالحمى. تصعد السخونة من تحت الجلد،
تذيب القشرة شيئا فشيئا. انفجرت شفاتها تلهث، ولعقت بطرف لسانها
السائل الذائب.

– سأعطيك الزجاجة بشرط واحد.

– ماهو؟

- أن تكفى تماما عن تلك المؤامرة.

- ماذا تعنى؟

- ألا تعرفين أنك مراقبة بدقة وحركتك مرصودة.

- مرصودة؟

- كل حركة، بل كل خلجة.

- خلجة

- نعم، عليك أن تنسى كل شئ عن أمك وخالتك وحتحور وسخمت
وجميع النسوة، نعم، جميع النسوة، أتفهمين ذلك؟

هزت رأسها علامة الفهم. لم تكن تفهم شيئا. كانت تريد الزجاجة ولاشئ
غيرها. خطا الرجل فوق الأرض نافضا عنه ذرات النفط. قرب عنق الزجاجة
من شفيتها. التهمتها بأسنانها تهزها عدة مرات. تتلوى مثل دودة الأرض.
كانت الزجاجة جافة بلا قطرة واحدة مقلوبة فوق فمها، قعرها سميك مرفوع
الى السماء. ينفذ منه قرص الشمس مباشرة الى عينيها، كأنما هو عمود
ممدود من نار الآخرة.

طوحت بالزجاجة فى عين الشمس. أطرق الرجل رأسه فى خزي.

- ألم تكن تعرف أنها فارغة؟

- أعرف، لكن ...

- إذا افترضنا أن للمرأة روح مثل الرجل ..

- أجل.

- فلا بد أن هذه الروح تسكن جسدها.

- أجل، لكن ...

- لكن ماذا؟

- بعد الاحتفال بالعيد ينسون الصغار من أمثالنا ويستولى على نصيبنا الكبار.

كانت تنظر في عينيه، تدرك أنه يغطي بالكلمات على شيء آخر. كان يختفي في الغرفة الخلفية، يأخذ نصيبها. ثم يخفي الزجاجة في مكان لا تعرفه. أيا حاول السيطرة عليها عن طريق العطش؟

كان الرجل واقفا يحملق في الفراغ. يتحاشى النظر الى عينيه. ربما كان يعلم كل شيء. له ضلع في المؤامرة. في اللحظة الحاسمة سوف يقف مع صاحب الجلالة أو على الأقل رئيس الشركة.

تصلبت عند مدخل البيت تلوى عنقها نحو الأفق. السحب تتراكم على شكل نطف سوداء. ليس هناك ما يشير الى هدوء العاصفة. ارتفع صدرها وهبط في زفير عميق، مع كل نفس بدت روحها كأنما تخرج من جسدها.

ظلت مطيقة شفيتها في صمت. لم يكن في الصمت إنقاذ لشيء. عليها أن تكشف الأمر للجارات. ربما تستطيع النسوة عمل شيء.

- أجل، يمكنها اللجوء الى النسوة.

سمعتة يقهقه بصوت قرقعة البرميل. تجمدت فى مكانها من الفزع.
أيعرف النسوة أكثر منها؟ أيمكن أن تضحى بها النسوة إذا لزم الأمر؟
ظلت واقفه حيث كانت. لفت ذراعيها حول صدرها كمن تحس البرد.
عينها تتذبذبان دونما وعى. تقدم قدما وتؤخر الأخرى. كالفأرة الواقفه امام
ثقب فى الجدار. لاتعرف إن كان طريقا للهرب أم فوهه مصيدة.

غلبها الإعياء وهى واقفه. تساقطت قطرات العرق من جبينها. لعقتها
بطرف لسانها تستشعر الطراوة. بدت كأنها استعادت شيئا من الثقة. عليها
أن تتقدم وليكن مايكون. أجل، دون مخاطرة لاتحدث حركة.

حركت قدميها وتقدمت نحو الطريق. كان قرص الشمس يختفى وراء
الأفق. رياح شمالية تهب مع ذرات النفط. على حافة البركة رأتها جالسة
تفك الرباط الأسود من فوق وجهها. تدعك أنفها وزوايا عينيها. ومن حولها
النسوة يفعلن مثلها، يكشفن وجوهن. تمسك كل واحدة الرباط الأسود بين
يديها، ثم تهزه فى الهواء عدة مرات، محدثا صوتا مثل طرقة الهواء.
بدأت تدب بقدميها فوق الأرض. تدور حول نفسها دورة كاملة. والاصوات
ترتفع كدقات الطبول. النسوة يرقصن على شكل حلقة، وأقدامهن تدب
بالإيقاع ذاته. الغناء يتصاعد الى السماء مع الغبار.

- أهو قدرنا أن نحمل فوق رؤوسنا!

- براميل النفط الى الابد!

- لا يا أختاه! لا يا أختاه!

- ليس هو قدرنا! ليس هو قدرنا!

كان مدهشا أن تلمع ذؤابه الضوء في الظلمة. أن تكتشف الصلة بين
القدر والنفط. بدا لها جسدها مثل الجدار، منتصبا في وجه العاصفة. لاشئ
يمكن أن يسقطها.

في تلك اللحظة ظهر الرجل رافعا ذراعه. كادت الضربة تفلق رأسها.
لكنها وثبت متفاديه الموت. إنثنى فوقها فيما يشبه العراك. طرحته أرضا
رغم الإعياء. خطف الأزميل من يدها ليجردها من السلاح، فأمسكت
البرميل من أذنيه.

- القوة لاتهزمها إلا القوة.

دارت بها الأرض وهما يتصارعان. في لحظة خاطفة أصبح فوقها. ملأه
الغرور بامتلاكها فانتصب شعر رأسه. بدا في انتصابه أشبه بعرف الديك.
وكان يمكن للمعركة أن تنقلب إلى شئ آخر يشبه الحب. لولا أنها خطفت
الأزميل من يده.

تذكرت فجأة أنها كانت تحمل لقب الباحثة. أنها خرجت في إجازة. كان
هناك شئ تبحث عنه. راحت الحمى التي انتابت جسدها تنحسر. بدا لها أن
المرأة التي خرجت في إجازة لم تكن هي الباحثة. أنها لاتستطيع أن تحب

الرجل دون أن يخضعها ، وإن بدت حركة الإخضاع بريئة، إلا أنها لم تكن بريئة تماما.

كانت مع رجلها الآخر تتفادى هذا الخطر. كان مصابا بفيروس مجهول الاسم، يندرج تحت بند الحب. لم يكن هو الحب على وجه اليقين. وإن لم يكن هناك ما يثبت العكس. فى لحظة تتوقع فيها الحب تراه يجز على أسنانه من شدة الكره. وفى مرة انهال بأسنانه على كتفها فى عضة كبيرة. رقدت فى الفراش تهذى. تصدر أصواتا تشبه نباح كلب. وجاء الطبيب فغرس فى فخذها إبره ضد السعار. كتب فوق ورقة كلمات غير مقروءة، من نوع : الامتناع الكامل عن الحب وعن أكل المخللات المنقوعة فى النفط.

- بمقدورك النظر إلى دونما ألم؟

نعم، فى أعماقها كانت راضية عنه. ويمكن أن تنظر إليه دون ألم. فلم يكن هناك بديل آخر. كان الأمل معدوما تماما، ولا بد من كتابة العقد.

- ألا يكفى الوعد؟

- لا بد من كتابة ورقة.

- ألا توجد عندك ثقة؟

- ماذا تعنى؟

وقعت على العقد بحركة أشبه بتسليم الروح. كانت الصحف تنشر

ياسهاب عن حوادث الاغتصاب. اغتصاب الجسد بطبيعة الحال. فلم يكن أحد يعرف شيئا اسمه اغتصاب الروح.

- أتبولين وأنت واقفة؟ هذا ممنوع للنسوة!

من شق الباب كان يراها. لم يكن مسموحا للمرأة أن تقف حين تبول، وكانت هي تفضل الوقوف. فالمرحاض غارق فيها يشبه البركة. وإن جلست تخشى أن يلامس جسدها المقعد. كانت الصحف تتحدث عن الفيروس. ينتقل عن طريق الجلوس، وعن طريق الشيطان أيضا، ما أن ترفع المرأة ثوبها حتى يكون هناك متجسدا على شكل البشر.

- إذا اجتمع رجل وامرأة فثالثهما الشيطان.

لم يكن الجماع يتم دون وجود الشيطان. كالسير في الظلمة فوق الجسر. فجأة يظهر الشيطان. واقفا منتصب الشوارب مثل قط جائع. الرجال والنساء على السواء أسرى الوقوع بين أنيابه. كل منهم يتشكك في الآخر. من الذي بدأ. لأحد يعرف عن يقين ما الذي حدث. ولإثبات البراءة يكتبون ورقة. من لا يعرف الكتابة يستأجر قلما. والأقلام كثيرة. أكان هناك ولع الكتابة؟!

- لا، صاحب الجلالة نفسه لم يكن يكتب.

- ما المشكلة إذن؟

- مجرد ضوابط.

- ماذا تعنى؟

- إذا هاجت الروح فلا حدود لهياجها، وإذا لم يكن هناك ورقة فلا ضوابط على الإطلاق. أليس كذلك؟

لم تفتح قمها لترد. كان قد رآها من شق الباب. لم يكن بمقدورها أن تتخفى. لا مجال للحركة حين تلتف الشبكة. من السماء تسقط شباك الموت كالطر الأسود. فى الزواج أيضا يبدو أن هناك شبكة. وهياج الروح مثل هياج العاصفة. ليس أمام الجسد إلا الخضوع. أو ربما هو هاجس غامض. ربما تكون الورقة هى الضمان.

- ليس هناك ضمان لشيء.

- ماذا تقول؟

- فى غمضة عين ينقلب كل شيء الى النقيض، كنت أراك شابة موفورة الحماس، فإذا بك كهلة عجوز. ألا ترين نفسك؟

كانت المرأة مستلقية فى الخلاء أمام البيت. تدلى طرف ثوبها فوق حافة البركة. تطلعت اليه بعينين متسعيتين. عينا بقرة مذعورة. حملق الرجل فيها بعين واحدة جاحظة. عين قرموط من السمك مخنوق. فركت زوايا عينيها بطرف اصبعها. دقت النظر اليه. أياكون مثل هذا الرجل حقيقى؟! بدا لها غير حقيقى، ومع ذلك استمرت فى النظر اليه. وانهاال تدفق النفط مع الريح. تسلل من تحت ثوبها الى السروال، وزحف فوق فخذيها. راحت تقاوم الزحف، لكن بعد فوات الوقت.

انتفضت واقفه تنفض عنها السائل الأسود. لكنه راح يزحف رغم إرادتها، يتكور تحت جدار البطن ويتراكم فوق الذارعين والكتفين. نشجت بصوت مبحوح. أصبح أكثر إصرارا. زحف فوق النهدين ومن هناك صعد الى العنق. أكان يخنقها؟

- لسوء الحظ ليس النفط رجلا حتى يمكن التخلص منه.

سمعت الصوت الغريب يخترق جسمها. بدا لو كان هو صوتها. أو صوت أمها وهي داخل الرحم. لم تكن هي أمها فيما يبدو. وإنما امرأة أخرى استعارت جسمها. وقد انتهت مدة الاعارة، وعاد الجسم الى صاحبه الأصلية. ربما كانت تخدع نفسها لمجرد الإقلاط. لكنها لم تكن تنسى صوت أمها قبل أن تولد. كانت تعوم في سائل غليظ القوام. وتغرق في أحلام كثيرة. آخرها حلم بأنها تبول في الخلاء وتخشى أن يراها أحد.

- أنا باحثة محترمة.

أجل، كم مرة حاولت أن تعرفه بنفسها. كم مرة أكدت له حقيقتها. وكونها باحثة في علم الحفريات، ولها زوج ينتظرها هناك، ورئيس في العمل يشهد بكفاءتها، وزميلاتها من النسوة عن يقين يتذكرنها، أيمن أن تفقد النسوة ذاكرتهن أيضا؟

- أليس من العدل أن تدفع لى أجرى؟ هل يمكن أن أفقد عرق جبيثى كل هذا العمر؟ وأنا لا أريد إلا تذكرة العودة.

بلل الرجل شفته السفلى بلسانه، وابتسم دون أن ينظر اليها. بدت ابتسامته مجرد تجاعيد فى الجلد حول الفم. لم يكن امامها إلا أن تمسك الأزميل، بينما هى ترفع ذراعها انطلقت منه الصرخة.

- أتتوین قتلى؟!

هبطت ذراعها ولم تنطق.

- من المؤكد أن الحوار انقطع.

- يمكننا أن نبدأ من جديد.

- كيف هذا؟

- يمكننا الوصول الى حد أدنى من الاتفاق. ليس أمامنا إلا هدف واحد. أن نحمل أنفسنا من الموت أليس كذلك؟ لحسن الحظ لازلنا أشداء، ولنا سواعد قوية ونستطيع العمل. وهذا هو الهدف من بقائنا هنا. فالنفط رغم كل شئ أفضل من كائنات أخرى أشد قسوة. ويمكن للنفط أن يترفق بنا إذا استسلمنا له، لكنك لاتكفين عن المقاومة.

- اتسعت عيناها ولم تنطق.

- نحن لاتطلب إلا الرحمة، وكلنا نعلم أن المستفيد الوحيد من النفط هو صاحب الشركة، وصاحب الجلالة بطبيعة الحال، وهذا أمر منطقي. ما الخطأ فى هذا؟ إنه حقهم بأمر السماء، ألا تكفين عن الطمع؟!

لم تكن تعرف عن يقين أنه صوت الرجل. ربما يعود الأمر كله إلى

خيالها ، وفي الخارج كانت أصوات النسوة كالغمغمه ، وضحكات متقطعة كالنشيح .

- ما بالك تدخلين في أمور لا تخصنا .

- كيف ؟ ألا نحمل البراميل ؟

- عليها اللعنة ، أصابتنا بوجع الدماغ وسوف تقضى علينا جميعا .

- لا بد من التضامن لنصبح قوة .

- لا حول ولا قوة إلا بالله .

كان الرجل قد شرع في العمل . رآته يحرك ذراعيه بهمة جديدة ، وعضلاته نافرة . مسح العرق بكم قميصه وتوقف فجأة . حرك رأسه ناحيتها . لمحها من بعيد تحدث النسوة . لعب الفأر في عيه وحلق صقر في الأفق على ارتفاع منخفض . فرد جناحيه الكبيرين وحجب الشمس . تطلعت المرأة الى السحب . بدا وجهها شاحبا تعلوه الذرات السوداء كالنمش . غامت عينيها واصبح الدم في عروقها لونه أحمر . وانفتحت حقيبتها فجأة بقوة الريح . رأت أنفا طويلا يعبث بمحتوياتها يشبه أنف فأر . أخرج الأزميل . وراح يفتش داخل البطانة . اشتدت الريح وكادت تقتلعها من مكانها . تدفق الشلال كالطر فوق وجهها . مسحته بكم جلابيها وفتحت عينيها . لم يكن فأرا وإنما هو الرجل . تكور حول نفسه فوق الأرض كالدودة ، وراح يفتش جيوب الحقيبة .

- هذا ليس حقك!

- ما هذه الورقة؟

- لى أوراقى الخاصة.

- أعندك زوج آخر؟!

كانت له أصابع غريبة الشكل. والورقة كانت مطوية فى القاع تحت البطانة. لا يمكن لأى اصبع أن يصل اليها، إلا بعد تدريب طويل فى مدرسة البوليس. مدت ذراعها واختطفت الورقة. ألقت بها داخل حلقها وابتلعته. هجم عليها بحركة مباغتة. أصبح فوقها يركبها كالحصان. أدخل إصبعه فى حلقها ليخرج الورقة، يدور به تحت اللهاة، وبين ثنايا اللحم. أنفاسه تتدافع من فمه المفتوح، كالبخار يندفع من فوهة القطار. ثم أخرج إصبعه فى النهاية بشئ صغير، يشبه حبة الفول، أو قطعة متجمدة من النفط.

- أنت تستحق الشكر رغم كل شئ.

قالتها بصوت مفعم بالصدق. بدا جسمها أكثر قوة. وأنفاسها تدخل صدرها وتخرج بسهولة أكثر. لقد استطاع أن يخلصها من الغصة فى حلقها.

يبدو أنه لم يسمعها. كان يرقب حركة الورقة داخل أحشائها. لم يحدث

قط أن انتوى خداعها بهذا الشكل. سيراغب مواعيد دخولها الى المرحاض.
لن تفلت منه الورقة بأى حال.

- لنفرض أنها عقد زواج فمن هو الرجل؟ وإن لم تكن عقد زواج فماذا
تكون؟ رسالة حب؟

بدا الحب فى عينيه أقل خطرا من الزواج، فليس فى الحب شئ ملزم.
أخرج من جيبه سجارة. انتفضت أصابعه وهو يشعل الكبريت. كان جالسا
فوق برميل مملوء. وانتشر الدخان من حوله على شكل دوائر، ثم رفع عينيه
الى الأفق. كان الصقر قد حط فوق حافة البركة، وراح يأكل شيئا صغيرا،
يتلوى بين أسنانه كاللودة.

- إذا كان الأمر فى نهاية المطاف مجرد الحب، فأى نوع من الحب
يكون؟

هكذا راح يسائل نفسه وهو ينفث الدخان. لم يكن يعرف من الحب إلا
نوعا واحدا. ذلك الذى لا يدفع فيه شيئا.

تعبت المرأة من الوقوف فجلست فوق المقعد. من وراء الباب كان يرقبها
من شق المفتاح. ربما تكون الورقة قد هضمت تماما. أو ربما الكلمات ذابت مع
ذوبان الحبر. رآها تضغط بيدها فوق أحشائها، كأنما تثبت الحروف فوق
الورقة، تحميها من الزوال. إلها الحد يكون الحب؟!

سمعها تدندن بصوت مرتفع. بدأت تغنى أغنية كانت تغنيها فى

الطفولة. ترفع صوتها فتغرق الأصوات الأخرى فى الصمت. من وراء الباب يتسرب غناؤها. لقد أنقذت الورقة وما عليها من حروف. وطرات لها فكرة وهى جالسة. ستكون ليلة العيد أفضل وقت للهروب. فالرجل يذهب إلى الحفل. إنها دعوة صاحب الجلالة، ولا يمكن أن يتخلف. يرتدون الثياب اللامعة والأحذية الجديدة، يجلسون الساعة وراء الساعة والأبواب مغلقة، لا يمكن أن يخرج وإن جاءه مخصص. يتلوى فى مقعده الساعة وراء الساعة. وقد يفلت منه البول قبل وصول صاحب الجلالة. يتحسس الواحد منهم المقعد من تحته. ثم يقرب إصبعه من أنفه خلسة. تتسع عيناه فى فزع. ليست هى رائحة البول. فوق إصبعه يرى طبقة سوداء، لاهى بالسائل ولا هى بالصلب، ولها رائحة النفط. لكن أحدا لا يستطيع النطق. يمسح كل منهم إصبعه فى سرواله خلسة ويبقى فى مقعده جالسا ينتظر فتح الأبواب.

– ربما تجتاز الحدود قبل عودته من الحفل.

كان الرجل ثابتا وراء الشق فى الباب. لم يعرف تماما متى يمكنه الانقضاض. بدت له المرأة نائمة وهى جالسة. رأسها يتدلى فوق صدرها، وعيناها مغلقتان. كان يفكر أيهما أكثر خطورة. أن تكون رسالة حب أم عقد زواج. ربما كان بمقدوره أن يكشف عن الخطرين معا، اذا كان الرجلان واحدا.

فى تلك اللحظة هبت العاصفة فانسد الشق من الباب. بدا الطريق أمامه مسدودا تماما، ولا شئ يراه إلا الظلمة. سمع المرأة كأنما تضحك من وراء

الباب. أتكون هناك علاقة بين الحب والنفط؟ أصابته الفكرة بالرعب.
وتراجع الى الوراء خطوة، فإذا به ينقلب فوق ظهره.

لم تره المرأة حين انقلب. تصورت أنه لا يزال وراء الباب. كان الألم يمزق أحشائها. وأنفاسها تتلاحق كأنما تشهق. لم يكن هو الضحك أو النشيج المتقطع. كانت تحاول الصراخ طالبة النجدة، لولا أنها تذكرت أنه وراء الباب ويمكن أن ينقض لسماع الصوت.

– كيف تشد السيوف بلا صوت؟!

لم يكن هناك ماء بطبيعة الحال، ولا شئ تزيل به الأثر. لم تشأ أن تفتح الباب وتخرج بوجه برئ. أكثر ما كان يقلقها هو الرائحة. مزيج من العرق والنفط وبقايا السردين والمخلل. أكانت رائحة منفرة؟! بالطبع لا. كانت شديدة الألفة تحس نحوها بالحب. لكن الرجل وضع يده فوق أنفه وصرخ فيما يشبه النجدة. فانتهزت الفرصة ووثبت خارج الباب.

كانت الشمس تنكسر عند المغيب. وفي ضوء الغسق بدأت تتحسس موضع قدمها على الأرض. عثرت على البقعة المحددة فوق الخريطة. رفعت ذراعها وضربت بالأزميل المرة وراء المرة. وفجأة أحست به يرتطم بشئ صلب. كان تمثالا صغيرا من البرونز. النهد البارز بوضوح لا يقبل الشك. والردفان أيضا يؤكدان أنها امرأة. فوق رأسها تحمل قرص الشمس والقرنان يلتويان الى الأمام. لا بد أنها الإلهة حتحور، من غيرها؟ كانت فى الرأس حفرة، والجلد تأكل بفعل النفط ومياه المجارى فى بطن الأرض، لكن الوجه

كان مستديرا ، والابتسامة فوق الشفتين ، والذقن والأنف يتسمان بالرقّة ،
والحزام حول الخصر النحيل ، والثعبان الملفوف والمعقود حول الجبين . فوق
الصدر لم يكن هناك إلا ثدي واحد . ربما أكل النفط الثدي الآخر . لكن
الحروف كانت محفورة فوق الحجر . والإسم داخل برواز . الإله ذو الثدي
الواحد . اتسعت عيناها ودققت النظر . أدركت أن الثدي قد أزيل بفعل
فاعل . كانت هناك النية لإزالة الثانى ، لكن الوقت لم يكن كافيا لاستكمال
الإزالة . كانت هناك محاولة أيضا لمسح الابتسامة ، أو رسم خطوط حول الفم
ليكتمل العبوس ، لكن الجسد ظل كما كان ممتلئ الردفين ، والروح ترفرف
حول النهد الواحد كأنما هو ثدى الأم .

- سيجذب هذا التمثال كثيرا من السياح ، ويأتى الفوج بعد الفوج ،
وتتدفق العملة الصعبة .

- ماذا تقول ؟

- ألا تفهمين كلامى ؟ ماذا حدث لك ؟ هل أنت مريضة ؟

- لا ، ولكنى طلبت إجازة .

- ماذا تقولين ؟

- مجرد طلب .

- هل فقدت عقلك ؟

لم يكن رئيسها فى العمل يدرك ما تقول . كانت قد اكتشفت علامات

التزييف، وتحويل الإلهات الى آلهة. لم يكن لها أن تحكى لزوجها عن رئيسها فى العمل. لم يكن الزوج يطيق الحديث. ورئيسها لم يكن يطيق سماع إسم زوجها. ولم تكن هى تطيق سماع الرجلين. كل ما كانت تريده هو الورقة، تكتب عليها الطلب، فلم يكن هناك إجازة دون ورقة مكتوبة، يحدد تاريخ المغادرة، وتاريخ العودة، والمكان المقصود، ولا يمكن ترك العودة بلا تاريخ محدد، ويمكن للرجل أن يغيب سبع سنوات، ثم يعود فيجد زوجته بحكم القانون، أما المرأة فلم تكن إجازتها إلا يوم جنازتها، والفرق مجرد حرف واحد فوق الآلة الكاتبة، وينقلب الفرح الى ماتم.

اختفى الضوء فوق متن كثبان النفط. فضاعت معالم الطريق فى الظلمة. توقفت عن السير. كانت الريح تصفر دون أن تسمع شيئا. قناة الأذن إنسدت تماما وكانت فى حاجة الى حاسة السمع. إيمكن أن تهرب دون أن تتسمع الأصوات؟ نظرت الى الساعة فى يدها. عقرب الساعات يشير الى السابعة، وعقرب الدقائق متوقفا، وعقرب الثوانى تأكل حتى النهاية. لو كان بمقدورها عبور الحدود قبل طلوع النهار؟ لن تسعى الى التشبث بالنفط مثلما تشبثت بالحب. فالطريق أمامها يبدو منزلقا، الانحدار شديد، والكثبان عالية، ليس هناك فارق بين الصعود أو الهبوط، وهى تترك جسدها يتحرك كما كانت تتركه وهى طفلة. رأسها يرتطم بالظلمة، وقدمها تغوصان لما فوق الركبتين.

حل الليل. وامتد النفط بلا نهاية. أمواج فوق أمواج. ولا أثر لأضواء

القرية. ولا البيوت، ولا الجسر. أغمضت عينيها. وتصورت زوجها يصحو من النوم فلا يجدها. سيلوى عنقه ناحية باب المرحاض. إذا كان مغلقا يدرك أنها هناك. وإن كان مفتوحا يظن أنها فى الحمام. أو ربما فى المطبخ. كان قادرا على تحديد مكانها دون أن يفتح عينيه. وإذا فتح عينيه فلا يمكن رؤيتها إلا من وراء الباب.

لم تخطر له قط فكرة فقدانها ولا فى الحلم. فالمرأة لم يكن مباحا لها أن تكون مفقودة. ليس لها مكان آخر تفقد نفسها فيه، وإن وجد المكان فليس هناك الرجل الآخر، وإن وجد الرجل فليس هناك الورقة. ولم يكن للمرأة وجود دون ورقة.

٢٨٠ - ولم يشك هو فى وجودها أبدا، أليس كذلك؟

كان فى استطاعة زوجها حين يمد ذراعه وهونائمه أن يمسكها. كان فى استطاعته حين يصحو ويمد ساقه أن يركلها. فالمكان ضيق تماما، يزداد ضيقا بمرور الوقت ومع ازدياد حجم الجسم، وتراكم الشحم، وقلة الحركة، وفى ليلة العيد يحملها فوق ظهره، كما لو كانت خروفا، يضعها فوق الميزان، وبالثمن الذى يقبضه يشتري تلك الآلة الجديدة.

- أى آلة تلك؟

- تلك التى يدق عليها بأصابعه فتكتب له دون أن يتعلم الكتابة. أجل، كان الحلم مشروعاً تماماً. والآلة لم يكن لها فم مثل المرأة لتأكل

ولا لسان يتكلم. فوق كل ذلك تكتب بخط واضح. وإذا لم تكتب فهي تظل في مكانها لا تبرحه. وإن تأكلت مع الوقت يمكن استبدالها، ويصبح بمقدوره الاستغناء عن المرأة تماما.

- إنها نوع جديد من الماكينات، ولها زر للكتابة، وزر للقراءة، وزر للشطب، وآخر للمسح

- ومن يطبخ لك؟

- وهناك زر أبيض تضغط عليه وتطلب ماتشاء من الاطعمة، وتأتيك الوجبة ساخنة تماما، ومعها الصلطات والمخللات وكل شيء.

- والجنس؟ أعنى الحب.

- هذا له زر آخر لونه أحمر.

كانت المرأة ترهف أذنيها، والأصوات تأتي عبر مسافات تستغرق زمنا طويلا. كانت من المهارة بحيث استطاعت الخروج في إجازة. أجل، فإن البقرة الأليفة قد تخرج يوما في إجازة، والماكينة أيضا قد تكف يوما عن العمل. لا يمكن لأحد أن يتهم إحداهما بسوء الخلق. لكنها كانت لسوء الحظ امرأة، ولا يمكن لها أن تكون بريئة.

- إذا هجرت المرأة فراش زوجها ليلة واحدة تعلق من شعرها يوم القيامة وتحرق في النار.

كان هو صوت زوجها في أيام الحب، لم يكن يطيق أن تغيب عنه ليلة

واحدة. لكن ذلك كان قبل أن تكتشف تلك الماكينات. وقبل أن يصبح للنفط قوة تشبه الكهرباء، وكانت هى شابة هادئة الطبع، مطيعة تماما لأوامر زوجها ورئيسها فى العمل. باحثة محترمة من الدرجة الأولى. لها إسم فى السجل مع صورة مومياء. وقد أعجب بها الجميع، لم يكن لها أعداء، ولم يكن لها أيضا أصدقاء، فلا شئ يلوث سمعة المرأة الا الاصدقاء. وفوق كل ذلك لم يكن لها شأن إلا بالتنقيب عن الحفريات.

- والآلهة؟ وصاحب الجلالة؟ ألم يكن لها بهم أى شأن؟

- ماذا تعنى؟

- أعنى، ألم يكن لها اهتمام بالسياسة؟

- أتقول السياسة؟! ألا تعرف أنه محظور على النسوة تعاطى

السياسة؟

- ألم تكن تقرأ الصحف على الأقل؟

- لم تكن تقرأ ولا تكتب.

- كانت جميلة إذن.

بدا لها الحوار غريبا، وإن كان طبيعيا تماما. لكن الأمر لم يكن سهلا. فالمرأة لاتستطيع أن تكون جميلة إلا من خلال مرآة جيدة النوع. وكانت المرايا تفسد مع الوقت. تزحف اليها الذرات السوداء مع هبوب العاصفة. يبدو وجهها مليئا بالبقع. تتزايد البقع بمرور الأيام. تنتشر فوق الأنف،

والخدين وتصعد إلى الجبين تغطيه، تلمس الملامح كلها والعينين. لا يبقى منها إلا عين واحدة، أو نصف عين.

تجمدت فى مكانها واقفة. لمحت صورتها منعكسة على السطح. أهو وجهها؟ لم تكن ترى إلا نصف عين، وفوق رأسها البرميل، وعنقها يلتوى الى ناحية. أتكون واحدة من الجارات وليست هى؟ ضربت بيدها المرأة فكسرتها. أجل، ماجدوى المرأة لامرأة لم تعد ترى وجهها؟

- لا بد أن هناك سبب يدعو المرأة الى اخفاء وجهها عن العالم.

- أجل، بالتأكيد.

- هذا دليل على فجور النسوة.

- أجل.

- طيب، إذن هل عندك خبر جديد؟

- أبدا، لم يعثروا لها على اثر بعد.

- ماهذه الماكينة؟ يبدو أنك اشتريت آلة كاتبة جديدة.

- أجل، وهى تكتب وتشطب وتمسح وتغسل وتطبخ، وكل شئ.

- يمكنك إذن السفر والاستمتاع بإجازة، وعندى استراحة بعيدة فى

الخلاء.

- أتعنى جار سونيرة؟

- لقد أصبح لها إسم جديد، ألا تعرف ذلك؟
- نعم، استراحة، هذا اسم أفضل، ويمكن أن أدفع لك بعض الأجر، رمزي على الأقل.
- لا مانع، إن كنت تصر، وقد ارتفعت الأسعار بإرتفاع سعر البرميل.
- أجل، وهذا أيضا بسبب فجور النسوة، ألم تسمع عن هذه البدعة الأخيرة؟

- نعم، بدأت النسوة تطالب بأجورهن.
- سيؤدي ذلك الى أرتفاع الأسعار بشكل جنوني.
- لا تقلق، فهناك ماكينات جديدة ستحمل البراميل فوق أربع أرجل من الكاوتش بدل النسوة، وتمشى بقوة النفط.
- هذا من فضل الله علينا. ألا ترى أن الله معنا دائما؟



واصلت التسمع عبر المسافة الطويلة. توقفت تمسح بكفها العرق. أمن الأفضل ألا تعود؟ تلفتت حولها تقدم رجلا وتؤخر الأخرى. كانت تقف فوق حافة البركة. تطلعت عيناها الى السماء تراقب ظهور الأضواء. ربما كانت طفولتها هي السبب. لم تكن قادرة على نسيان طفولتها. كانت تصعد عند الغروب فوق الجسر، وتجلس تنتظر. حقول الزرع ممدودة بامتداد النهر. أسفل المنحدر ترقد البيوت متلاصقة متساندة بعضها الى بعض. فوق الأسطح

أقراص الجلة والخطب وأبراج الحمام، والأرض ترابية يتصاعد منها الغبار
ورائحة الخبيز والروث، يتطاير منها الذباب والبعوض، والصراصير الطيارة
السوداء. البركة الكبيرة وراء الجامع يلعب فيها الأطفال يتصاعد منها نقيق
الضفادع مع أصوات الضحك والبكاء. من الطريق الزراعى تنبعث أصوات
العائدين من الحقول، تثير أرجلهم الغبار، وأرجل الجاموس والبقر، تختلط
أنفاسها مع أنفاس البشر. وهى جالسة فوق الجسر تنتظر. تتابع بعينيها
ارتعاشه النجوم فوق رأسها، وأسفل المنحدر ترتعش ذؤابات الضوء فى
البيوت، وصوت الناي يسترسل فى ظلمة الليل، وغناء النسوة الحزين
يجلسن فى العتمة وظهورهن الى الجدار، وخالتها تربط رأسها بالمنديل،
وهى فوق الجسر جالسة لاتريد العودة، مرتديه جلبابا ملطخا ذيله بالطين،
تمشى به كل يوم من الدار الى الحقل، وفوق رأسها تحمل زكائب المحاصيل،
وفى المساء لاتلعب مع الأطفال، فاللعب لم يكن إلا للصبيان، ولا شئ
يساوى عندها الجلوس فوق الجسر، عيناها مثبتتان فى اتجاه الافق، قلبها
ينبض بقوة، والاضواء تنتشر فوق رأسها فى السماء. والمصابيح فى النوافذ
ترتعش، فوق العمود يرتفع الكلوب، تحوم حوله الفراشات الخضراء، ذات
الأرجل المشرشرة، وتمتلئ المصطبة بالرجال، يخرجون من البيوت، ويأتون من
القرى المجاورة، يشربون الشاي والدخان، ويتناقلون أخبار الصحف. تغمض
عينيها وترى نفسها وقد دخلت المدرسة وتعلمت القراءة والكتابة وأصبحت
باحثة فى علم من العلوم، أو كاتبة من هؤلاء اللاتى ترى صورهن فى

الصحف. كان الشريان فى عنقها يدق بقوة. كأنما تتدفق الى رأسها الأفكار العبقريّة. كانت خالتها وجميع الجارات يرفعن كفوفهن المشققة الى أعلى، يبتهلن الى الست الطاهرة أن تمنع عنها الحسد والأرواح الشريرة، تسمع أصواتهن تهمس بصوت كحفيف الهواء : هذه البنت لها عقل يوزن بلد.

فى طفولتها امتلأ رأسها بهذه الفكرة. وأفكار أخرى بلا عدد، تفيض من حولها وهى ترقب النجوم. ترى الحياة تحت الأضواء واضحة كل الوضوح، مثل كتاب مفتوح، بسيطة كل البساطة، وأن الموت أبسط من الحياة ويبدأ لحظة الولادة، وأن الحبل يعجل بالموت، والزواج مضاد للعقل، وأن الملوك والآلهة كانوا مذنبين ومرتبكى آثام كثيرة، وأنها شهدت موت أبيها وهى جنين فى بطن أمها، وابتهجت بذلك الحادث السعيد الى حد الانزلاق من الرحم.

فى تلك اللحظة كانت تحس جسمها ينزلق وحده أسفل الجسر. وحين تعود الى الدار تتلقى علقه ساخنة، أو تبیت بغير عشاء. لكنها كل يوم عند الغروب تمشى الى الجسر، وتجلس فى مكانها هناك، تنتظر ظهور النجوم، كأنما تكتشف شيئاً جديداً، فى كل مرة تظهر فيها الأضواء.

– ما الذى يمكن أن تخسره الواحدة منا بحق الست الطاهرة؟!

ومع ذلك لم تفكر واحدة من النسوة فى الهرب. لم تكن تفهم السر. لماذا تضطر المرأة للعودة وهى لا تخسر شيئاً إن لم تعد؟ اللهم الا العلقه الساخنة.

لكن النسوة بدأن فى الابتعاد داخل الظلمة. لم تسمع منهن إلا أصوات
هامسة من بعيد كحفيف الهواء :

- هذه المرأة تفكر فى الهرب.

- امرأة بلا عقل.

- ركب رأسها الشيطان.

- بل إنه البرميل يسخن الرأس.

- لعنة الله عليه، أصابنا جميعا بوجع الدماغ.

- الرحمة يا ستنا الطاهرة.



كان الرجل قد عاد فجأة. بدأ يرفع البرميل من فوق الأرض، وهى تبرك
كالجمل فوق ركبتها. بحركة واحدة أصبح البرميل فوق رأسها. لا يفصله عن
فروة الشعر إلا تلك الحواية. ملفوفة حول نفسها والعقدة فوق الجبين. بدأت
السخونة تتسرب وعنقها يلتوى. كانت تفكر ماذا يمكن أن تخسر؟ لم يكن
هناك شئ تخسره، اللهم إلا ذلك الاحتكاك أثناء النوم، حين تمتد ذراعه فى
الظلمة، ويمسك يدها، فتتركها له لمجرد إستغراقها فى النوم، فإن لم تكن
مستغرقة تتركها له أيضا، مع تأنيب الضمير، وقد تسحبها منه وهى
تتأهب ثم تنقلب على الجنب الآخر لتواجه الحائط.

- ألم يكن بيننا فى البداية حب؟!

قد يكون هذا هو صوته، أو ربما هو صوتها. كل منهما اكتشف بعد فوات الأوان هذا الشك، الذي كان موجودا منذ البداية، وواضحا كل الوضوح. لكن كل شيء كان غامضا، وعسيرا على الفهم. ربما هو النفط، أو السخونة في الرأس، وربما هو الخجل أيضا حين يكون الحب غائبا، وحين تكون الصداقة بين الرجل والمرأة غير واردة، فما الذي يمكن أن يجمعها معا؟

– ماذا تقول؟

– الخجل.

كان الرجل في مكانه واقفا. مدليا كتفيه. صدره عار في مواجهة الليل. رآته يشد عضلات وجهه ويفتح فمه. حركة أشبه بابتسامة الحب. كانت أشد قسوة من الكشف عن أنياب الذئب. قد يتورط في عمل الحب، لكن ذلك لن يكون إلا بسبب اليأس، واشتداد الحرارة أو التهاب الجلد.

– الرجل يفرق المرأة في كل شيء حتى الحب.

– أتعنى حب الذات؟

– إسمعى! ماهذه الأصوات؟

لم يكن في إمكانها سماع أي شيء، ربما كانت الأصوات تنبعث من الماضي أو الخيال المصاب بضربة شمس. واستطاعت رغم ذلك أن تدرك العلاقة بين حب الذات وشهوة الجنس.

رفعت ذراعها الى أعلى، وأمسكت قعر البرميل، خشية السقوط.
أوغلت بقدميها فى البئر. أدركت وهى تغوص أن هناك شئ آخر فى
الطفولة، لا يمكن أن تنساه، وهى النظرة فى عيني خالتها، قبل أن تختفى
العربة فى الليل ومعها الكلاب. كان تدفق المطر يزداد مع قوة الريح،
والذرات السوداء تتطاير بسرعة أكبر، تشبه الصراصير الطيارة فى الليل.
رغم المطر وانزلاق الأرض، كان عليها أن تحمل من البراميل الضعف أو
الضعفين، بأمل الحصول على تذكرة العودة، أو نصف تذكرة. كان يمكن
تخفيض الثمن الى النصف فى حالة الأطفال تحت سن الرشد أو النسوة من
ذوات السمعة الطيبة، أو الرجال من ذوى الأمراض، والمصابين بالعتة.

أوغلت حتى القاع غير هيابه لشيء. تركت أمواج النفط المتدفقة تلطم
صدرها وتمزق الجلباب، يتعري جسمها يتلوى مع حركة الموج. تلهث كالطفلة
تسبح، تدخل المياه صدرها فتشبهق، ترتفع ذراعها وتهتز بعنف، كالفرخة
المذبوحة ترقص.

هدأت العاصفة قليلا، وهدأ معها جسمها، بدأ عقلها يعمل، أجل، لم
يكن لعقلها عمل سوى التفكير فى الهرب. كان يمكن أن تهرب تلك
اللحظة، لولا جسمها المدفون فى الأرض. والرجل أيضا واقف فوق رأسها
كالصقر. ورئيسها فى الشركة لا يكف عن المسائلة : كم يرميلا حملت. لماذا
تأخرت عن الحضور فى الموعد المحدد؟ كان هناك دفتر للحضور والانصراف،
وعليها أن توقع كل يوم، حضورها وانصرافها وعدد البراميل التى تحملها.

- أجل، إذ كان جسمها مدفونا فى هذا المكان فلماذا لاتبدأ على الفور بالحفر؟!

عقدت عزمها فى الحال على الإمساك بالأزميل، والعودة الى البحث. لم يعد لديها هدف إلا العثور على جسدها. إن لم تعثر على الجسد بأكمله، ربما تجد عضوا أو شيئا من الرفات. وقد يحالفها الحظ فتعثر أيضا على واحدة من الإلهات. تدفق الحماس الى جسدها على شكل انتفاضة العضلات. يدها تشد على الحزام كالמושكة على ضرب عصفورين بحجر واحد.

كانت الحرارة شديدة. نزعت الحقيبة من فوق كتفها ومعها الحزام. فكت ازرار الثوب وتخلصت تماما من ملابسها. بدا جسمها شابا أكثر شبابا مما تصورت. خطرت لها فكرة أن جسما آخر غير جسمها قد اندس بالقوة فى المساحة التى تشغلها. عبثا حاولت أن تضع يدها عليه. كان هناك من يمسك يدها فى يده. ربما هو الرجل. من غيره؟ كان يؤنبها لأنها لم تجهز العشاء، فى الأمسيات التى لم يكن يؤنبها فيها كان يستغرق فى النوم، دون أن ينطق حرفا، أو حتى ينظر اليها.

لم تكن الحرارة مزعجة، ربما بسبب العرى. نسمة هواء تداعب النهدين، تتسع عيناها وهى ترقب ذلك الجسد العارى، تشتد الدهشة حين يتحرك الجسد الى الناحية الأخرى ويختفى.

كان عليها أن تحرك رأسها قليلا لتراه مرة أخرى. جسد طويل مشدود

العضلات خاصة عضلات البطن، بسبب عدم الحبل لاشك، وعضلات العنق، إنه البرميل لاشك. وعضلات الذراع اليمنى، بسبب الحفر بالأزميل لاشك. وأصابعها طويلة مسحوبة الأطراف مشبعة بالحركة دون أن تحركها، ولون الأظافر أسود.

لم يسبق لها قط أن تأملت جسمها عن هذا القرب. قمة أنفها حمراء ملتهبة بسبب الشمس وجفونها متورمة. كتفاها يهبطان بحدة الى اليمين والى الشمال. لونهما برونزى قاتم مثل كتفى الموميا، لكن عند الصدر كانت تبتدى منطقة اللحم الحقيقى. نهذان بارزان فى كبرياء، حاران، كأنما تسخنهما من الداخل روح خفية، والحلمتان نافرتان مستنفرتان تنبضان مع نبض آخر ينبعث من عمق مجهول.

هبطت عيناها مع انسياب الجسم. تجمدتا فوق غابة الشعر أسفل البطن. عبثا حاولت أن تنظر. لم يكن لها أبدا أن ترى بوضوح، وإن دقت النظر تحس الالتهاب فى عينيها. لم تكن تستطيع النفاذ الى هذه الغابة، التى بدت لها رغم الكثافة فارغة من الداخل. أكان ذلك بسبب فراغ العالم؟

اشد ما كان يفزعها، هو عجزها عن التحديق طويلا فى عينيها. تراهما غائرتين تحت عظام جبهة يابسة كالأرض. تنظر اليهما، كما لو كانتا نقطتين فى الأفق بعيدتين جدا، أبعد من النجوم، كأنما لو كانتا عينا امرأة أخرى تطلان عليها من وراء السحب.

- عينا واحدة من الإلهات لاشك.

كانت قد حددت المكان حسب الخريطة. واصلت الحفر على مدار اليوم من الشروق الى الغروب. لم تكن تتشكك فى المكان. ورائحة جسدها تتصاعد من بطن الأرض. لاشئ يدل على الجسد إلا الرائحة، لكنها فى نهاية اليوم لم تعثر على شئ. خرجت مع الأزميل خاوية اليدين.

ربما أخطأت المكان. لاشئ كالخطأ بعيد إليها الأمل. حملت حقيبتها وانتقلت الى مكان آخر تصورت أنه الصحيح. كانت الرائحة تتصاعد منه على نحو أشد. كلما اشتدت الرائحة ازداد يقينها أنها بالقرب من جسدها. حفرت حتى وصلت القاع. لم تعثر على شئ، فانتقلت الى مكان آخر. لم تكن مستعدة لقبول اليأس. انقضى اليوم وهى تحفر دون طائل. احتضنت الأمل على امتداد اليوم وراء اليوم، وفى كل يوم تنتقل من مكان إلى مكان. فى نهاية المطاف حين انصرم النهار الأخير وغابت الشمس، تهاوى جسدها وراحت تجهش بالبكاء.

- أياكون من الأفضل أن تعود الى حمل البراميل؟

لكن الدموع كانت تنحدر كالبخار المحبوس. تخفف رأسها من ثقل الضغط ثم فتحت عينيها. أدركت أن جفونها ملتهبة والدموع امتزجت بذرات النفط. لكن عقلها كان يصفو على نحو غريب. ولاحت لها فكرة من بعيد كالنجم يلمع فى ظلمة الليل. إن عدم وجود الإلهات فى هذا المكان لايعنى عدم وجودهن على الإطلاق. ثم إن الأرض تدور، وربما قد تبدل المكان بمكان آخر مع دورة الأرض.

- فكرة منطقية تماما.

وكان هناك الدليل على هذه الفكرة. إن موضع جسمها قد تبدل فعلا. لم تعد فى مكانها الأول. كان تدفق الشلال يجرفها الى مكان آخر. وفى بطن الأرض كان التيار أيضا يدفع الرفات بحركة مستديمة. كان يمكن لرفاتها على هذا النحو أن يجتاز الحدود، لولا نقطة التفتيش، وإذا كان الحارس غارقا فى النوم.

ربما هو خطها العاثر. كان الحارس يقظا بسبب يقظة البعوض ليس إلا، والمبيدات أيضا كانت مغشوشة تلتهمها البعوضات فى غمضة عين، وتغدو الواحدة منهن فى حجم الضفدعة. أجل، كان يمكن أن تفلت بعض الأجسام من جواز المرور، ربما أفلح جسمها فى الهرب بلا تذكرة، ولا تصريح مكتوب بخط زوجها، ولا ورقة صفراء مختومة بالصقر وتوقيع رئيسها فى العمل. لم تكن لديها النية فى خرق القوانين. كانت مثال الطاعة والولاء. وكان يمكن على الأقل لرفاتها أن يمر دون فحوص. لولا إنشاء ذلك المبنى الذى سمى فيما بعد بالمشرحة. فى أحلامها بالليل لم تكن تستطيع النظر الى جسدها الممدود، فوق المنضدة الباردة من الرخام. وأنفها مملوء بالفورمالين. وأحست يدا حانية تهددها. كانت بطبيعة الحال يد الرجل. من غيره؟ صوته فى أذنيها رقيقا كالهواء.

- لن تكون رائحة الفورمالين أسوأ من النفط فى نهاية المطاف.

كان صادقا كل الصدق. بدت رائحة الفورمالين أكثر رقة. أو ربما هو
الحلم. حين يصبح الشئ جميلا لمجرد أنه غير موجود. وخطرت لها فكرة.
- لابد أنها جميلة الآن فى عينى زوجها لمجرد أنها غير موجودة.

اثر هزة عنيفة إرتمت أرضا فاقدة الوعي. لم تستطع تثبيت قدميها فى
المكان. جرفها التيار فى اتجاه لايمكن أن تحدده، وقبل أن تستعيد الحواس
انبعث صوت أشبه بصفارة المركب. انطلقت تجرى نحو الشاطئ، وصوت
الأمواج كالطبول ترتفع.

- النجدة!

صدرت عنها الصرخة كصوت الحيوان المذبوح. كان يمكن لها أن تعيش
كالنسوة ثم تموت لولا ذلك الأزميل، وتلك الجلسة فوق الجسر عند الغروب
وهى طفلة، وذلك الضوء، كفى كفى لاجدوى الآن من أى شئ.

- النجدة!

انطلق صوتها كالصفارة وسط دقات الطبول. لم تعرف أهى طبول العيد،
أم صفارة الصمت تدوى فى الأذن قبل النفس الأخير. إلا أنها كانت ترى
الشرع من بعيد. نقطة بيضاء فى الأفق. الظهور الأول لأى مركب فى
البحر. عيناها تكتشفان الضوء. نقطة واضحة كل الوضوح. محددة مثل
قطرة ماء، واضحة وصافية وعذبة، كصوت أمها يسرى فى أذنها قبل
الولادة.

- إمسكى إيدى.

رأت ذراعا طويلة فى نهايتها خمسة أصابع. مفرودة ممدودة اليها. وهى تمد ذراعها كما كانت تمده وهى طفلة. عيناها شاخصتان ثابتتان فوق نقطة الضوء. قفزت الى الأمام تهزها النشوة. الصوت فى أذنيها واضح محدد كالنجم.

- هاتى إيدك فى إيدى.

حركت جذعها لتمد ذراعها أكثر. إختفى الصوت كأنما بددته الحركة، أو اختنق فى قرعة الطبول، ونباح الكلاب من بعيد. أطبق الظلام يشبه التجويف داخل الرحم. أدركت أن أمها لابد عاشت هذه اللحظة، حين كانت تغيب الشمس ويفرق الكون فى الظلمة. كانت تجلس مثلها فوق الجسر. عيناها تنظران، وحين تظهر الأضواء ينتفض جسدها كما كانت هى تنتفض، وقلبها يدق بقوة، توشك على اكتشاف ذلك الشئ، الذى كان يبدو فى كل مرة ليس شيئا.

كانت البركة تمتد أمام عينيها لانهاية. الرجل كان يستدير عائدا إلى البيت. ظهره أصبح مقوسا بعد أن تهاوى فى الفراش. كان نومه ثقيلًا، وهى راقدة مغلقة الجفون. فى أحلامها لم تكن تكف عن الهرب. ساقاها تطلقهما للريح. ومن خلفها كان هناك شئ يجرى فوق قدمين، وأحيانا أربعة أو ستة لم تكن قادرة على أن تعد الأرجل أو القوائم. وصوت اللهاث من خلفها عال

مسموع. له إيقاع منتظم كالشخير. حين تستدير لاترى شيئا يجرى وراءها
إلا ظلها الأسود فوق الأرض.

- إنت صاحى؟

- لأ، نايم.

لم تكن تعرف كيف يرد عليها وهو نائم. لكنه كان يتكلم فى النوم أكثر
من أى وقت آخر. فإذا انقلب على الجنب الآخر لم تسمع الصوت. كان الليل
حارا كأنما قرص الشمس لم يغب. الظلمة كثيفة القوام تكاد تلمسها باليد.
وضوء اللمبة يتهالك رغم الثبات. لاشئ يتحرك إلا تلك الكائنات، ذات
الأجنحة. كان من الطبيعى أن تنجذب الفراشات البيضاء الى الضوء. لكن
هذه الكائنات لم تكن بيضاء. ولم تكن صغيرة كالفرشات. كانت كبيرة
بحجم الضفادع، سوداء بلون الليل.

- هل يغير النفط أيضا من طبيعة الفراشات؟!

راحت الضفدعات تدور بحركة سريعة حول المصباح. حدقت فى إحداهن
طويلا. كان لها رأس أسود كأنما مربوط بمنديل. فمها مزموم بلا ابتسامة.
ترتطم بزجاج المصباح المرة وراء المرة. ظلها فوق الجدار أكبر من حجمها
الحقيقى. يتراقص مع حركتها، يترنح مثل فرخة مذبوحة. تتخبط ولا تكف
عن الانجذاب إلى اللهب، تتشبث به تحاول الثبات عليه خشية السقوط.

كانت تبدو لها ضفدعة عاقلة تماما رغم سعيها المجنون. ألم يكن لديها

ما تمسكه إلا ما يدمرها؟! كانت تسعى الى النجاة، مع أنه ليس إلا الموت،
وقد أصابها اللهب بسخونة فى الرأس، وسقطت محترقة إلى الأرض مثل
سمكة مشوية. عيناها جاحظتان مملوءتان بالندم. مدت ذراعها لترت على
رأسها. وفجأة تصاعدت منها رائحة اللحم المشوى. بحركة سريعة من يدها
أدخلتها فى فمها، والتهمتها فى لحظة. لم يكن لديها وقت لتأنيب الضمير.
لمحها الرجل وهى تتلمظ بعد الوجبة الشهية. مسحت فمها بكفها كأنما
تخفى الإثم. شدت عضلات ظهرها. سارت تدب بقديمها كما كانت تفعل
وهى طفلة. إنها تسرع الخطى. كأنما لتلحق موعدا محددًا فى المكان المحدد.
أنفاسها تلهث كالأطفال. تكاد تصرخ من الفرح حين تصل قبل الموعد
بلحظة. تلك الليلة كانت الريح تعصف، والغبار الأسود يحجب السماء
والأرض. ظلت جالسة فى مكانها تنتظر. ربما انتصف الليل وهى تنتظر.
كانت على يقين أن النسوة هناك وراء السحب، وأنهن سوف يظهرن مثل كل
ليلة. السحب كانت تراها متحركة، وسوف تنتقل من هذا المكان الى مكان
آخر، سوف تظهر النسوة حتما عن يقين سوف يظهرن. وبدأت تغنى لتسلى
نفسها. كانت تسمع خالتها والنسوة من الجارات يغنين للست الطاهرة، أو
يغنين للشمس حين تطلع، أو للقمح عند الحصاد، أو لمياه النيل حين
تفيض، أو للقمر حين يصبح بدرا. تتوه عيناها فى خضم الظلمة السوداء.
تلمع الدموع فى عينيها. النسوة لم يظهرن ككل ليلة.

- هل وشين بها عند صاحب الجلالة؟

كانت الريح تلطم وجهها بالذرات السوداء.. كل شئ من حولها تغطى بالظلمة. لا هى بالسائلة ولا هى باليابسة. تتسرب من تحت الجلد وتدخل مسام جسمها. تزحف من تحت العظام الى مراكز الحس والعصب.

- بللى لسانك بقطرة أو قطرتين.

كان الرجل واقفا، ذراعه ممدودة اليها بالزجاجة، وهى تحاول أن تمد ذراعها. عيناها مفتوحتان عن آخرهما، شفتاه تتحركان دون أن تسمع الصوت، أذناها مسدودتان، تراكمت الذرات وذابت مع السخونة كالشمع الأسود. وهو واقف أمامها على بعد امتداد الذراع. يده تمسك الزجاجة. ذراعها ملتصقة بجسمها، تحاول أن تحركه فلا يتحرك. جسمها فى مكانه ثابت، بينما الضفدعات تتطاير بخفة حول اللبنة.

اتسعت عيناها تحملقان فى الضوء. جفونها ملتهبة لاتقوى على إغلاقها. اللهب يلسع البياض العارى. شدت جفونها وأغمضت عينيها. بدت الظلمة أفضل من الضوء. عقلها ايضا بدا لها أكبر من عقل الضفدعة. من تحت الجفون كانت ترى نقاط الضوء تسبح فى المساحات السوداء، مثل قطرات الماء تنزلق من بين عينيها.

- أتبكين كالنسوة؟

لم تكن تعرف أنها هى التى تبكى. كان النشيج يسرى فى اذنيها كصوت واحدة من الجارات. أو صوت خالتها، أو أمها وهى بعد جنين. أو ربما هى الست الطاهرة نفسها. لم تكن سمعت صوت السيدة الطاهرة أبدا،

لكن خالتها كانت تسمعه، وحين تنام تترك النافذة مفتوحة، ترهف أذنيها
فى الليل، قبل طلوع الفجر، يسرى الصوت هادئا كشعاع من الضوء.
لاتكاد تسمعه وهى راقدة فتنهض، تشرئب بعنقها نحو الأفق، يأتيتها
الصوت من بعيد قبل ظهور الشفق.

- أمرت بشفائك من وجع الرأس، انهضى!

تنهض خالتها على الفور من رقادها. تفك المنديل من حول رأسها. تجلس
فى الطشت. تصب الماء بالكوز فوق جسمها. مع كل كوز تهمس باسم الست
الطاهرة ثلاث مرات.

- من هى الست الطاهرة يا خالتي؟

تفتح خالتها ذراعيها كأنما هى كل العالم. الست الطاهرة هى أم الكون.
هى أم السماء والأرض. هى الوحيدة القادرة على شفائها. هى أم الآلهة
جميعا والأنبياء، هى واهبة الحياة والصحة، وهى إلهة المرض والموت.

- نعم يا ابنتى، مَن تُعطى الحياة هى القادرة على أخذها ومَن تجلب
المرض هى التى تجلب الشفاء.



من وراء الكشبان العالية، عبر المسافة البعيدة فى الليل، رأت مندوب
البوليس جالسا. كان هو الكرسي المتحرك ذاته، يدور به فيصبح وجهه ناحية
زوجها. بدا كأنما أيقظوه فجأة من النوم.

- أراك متورم الجفون، وشفتاك مشقتان هل أنت مريض؟
- منذ العيد لم يرسلوا إلينا المنحة.
- ألا تكف عن التذمر وأنت فى نهاية العمر؟ ألا تعرف أن صاحب الجلالة هو الخادم الأمين والساھر على الدوام من أجل راحتنا؟
- أجل، هذا واضح تماما لكن ..
- ليس عندك حجة الآن لعدم الكتابة، وعندك هذه الآلة الجديدة.
- أتنوى الشركة توصيل التيار؟
- أجل، وإذا جاء التيار يمكن لك أن تكتب حين تنقطع الكهرباء، وهذه الآلة الجديدة كما تعرف تفكر، وتكتب وتشطب وتمسح و ...
- وتغسل وتطبخ وكل شئ، إنها تقوم بعمل أربعة زوجات على الأقل.
- ألم تعد زوجتك من الإجازة بعد؟
- أتعنى الأولى أم الأخيرة؟
- على أى حال نحن جادين فى البحث. لابد من تقديم تقرير لصاحب الجلالة قبل نهاية العيد، وهو كما تعرف فى انتظار مقالك الجديد بمناسبة عيد ميلاده، أتعرف أنه سألنى عنك، ولماذا لم تعد تكتب.
- منذ كف عن الكتابة لم يكن هناك إلا فراغ العالم. امتداد الليل فى النهار ولا أحد يسأل عنه. مساحات من الظلمة لا يملأها إلا النوم. أو قراءة

الصحيفة أو تحريك الذراعين والساقين فى الهواء. مع طرقعه أصابع القدم.
كان مثل صاحب الجلالة لا يعرف القراءة ولا الكتابة. لم يكن له أن يكون
أفضل من الملك. ثم ماجدوى القراءة والكتابة؟ الأنبياء جميعا كانوا أميين
واستطاعوا رغم ذلك قيادة العالم. أليس كذلك؟

كان يدق طول الليل بأصبعه، الدقات تطرق فى رأسها وهى نائمة.
صوت الريح أيضا كان يفرق. والشلال يهدر كالطر يدق النوافذ والأبواب.
تلف رأسها بالمنديل الأسود، تعقده فوق جبينها كرأس الثعبان. ترى نفسها
فى المرآة مثل الإلهة سخمت. يرمقها بعينين حمراوتين ملتهبة الزوايا.

- صاحبة؟

- لا.

تقولها بلا صوت. تغمض عينيها متظاهرة بالنوم. تحكم إغلاق جفونها.
لكنه يمد ذراعه. يحاول فتح عينيها بأصابعه، كأنما سيسكب فيها القطرة.
لاشئ ينسكب فى عينيها إلا ضوء اللمة. يلامس بياض العين كاللهب.
وهو جالس فى مكانه يخفى نصفه الأعلى وراء الصحيفة.

- من الطبيعى أن تشعر بالحزى حين تقرأ مقالك. أليس كذلك؟

- لا تكلمينى بهذه الطريقة الخالية من الاحترام! ألا تعرفين أننى

زوجك؟

- لا، لم أكن أعرف.

- ألا تعرفين أن الله أمر المرأة أن تسجد لزوجها؟ هيا إسجدي يا مره!

- ألا تعرف أنك تسجد لصاحب الجلالة؟

- ما العيب فى هذا؟ الجميع يسجدون له.

- ألم يعلن أنك تسملت رشوة من الشيطان لتكف عن الكتابة عنه.

- لم يكن إلا عتابا رقيقا من جلالتة، وكتبت شكوى له.

- شكوت منه إليه؟

- ما العيب فى هذا؟ الجميع يشكون منه إليه. هيا إخلى ثوبك الوسخ

وخذى حماما لنحتفل معا بالعيد وعندنا بدل الزجاجة زجاجتين أنظري!



كان يمسك فى كل يد زجاجة، ويدور حول نفسه، يدق الأرض بقدميه فى إيقاع راقص. طبول العيد تدق الإيقاع ذاته. واهتزت الأرض تحت جسده، فانفكت دكة اللباس. تساقط سرواله حتى قدميه. رفسه بقدمه اليمنى، فطار فى الهواء ثم اشتبك فى خطاف فى السقف. ظل معلقا يتأرجع تحت الضوء، تعلوه البقع السوداء، تفوح منها رائحة النفط. وهو يواصل الرقص عاريا، كما ولدته أمه. يدور حول نفسه دورة كاملة، ثم يعود الى النقطة ذاتها حيث بدأ.

كانت تظنه فى عمر الشباب. لكن جسده العارى كشف انه كهل. كتفاه تهبطان متهدلين الى أسفل. صدره مقوس تحت فروة ناحلة من الشعر.

عضلاته مثل حبال مرتخية، وبشرته يابسة مثل طبقة من الجبس يمكن أن يخلعها عنه.

هبطت عينها مع انسياب جسده أسفل البطن. كان ضوء منحرف يتساقط فوق كتلة الشعر. تهتز مع كل تنفس ملقية ظلالها على الجدار. شريان عنقه نافر ينتفض. يرسمه الضوء الشاحب بخط أسود. أجل، كان هناك نَفْط حقيقى فى عنقه. فى هذا الشريان المنتفخ، وفى هذا السائل الأسود الذى يجرى مجرى الدم.

ظلت واقفة تحمق داخل ملابسها الكاملة. وهو ينظر إليها يتوقع منها أن تخلعها. لكنها أصبحت تشك فى أمره. ولا تعرف ان كان عليها ان تتعري مثله. لم يكن لها هدف من البقاء معه إلا الاحتماء وراء جدار، وإن سقط الجدار فى مواجهة الشلال فلن يكون بينهما شئ.

– أجل، سينهار الجدار وينهار كل شئ معه.

ربما استغرقت وقتا طويلا حتى تعرت. حدث كل شئ كأنما لاشئ. ثم دوت الصفارة فى أذنيها كالصرخة. صرخة ألم كاملة السواد مكتملة اليأس. صرخة بلا حدود شقت الظلمة مثل حد السيف. تحمل من عرض البركة ومن أعماق الأرض والسماء جميع الآلام. مثل ظهر حيوان مثقل بجميع الأوجاع، بذكرى الاهانات والصفعات، وحفلات الأعياد، والزجاجات والمقالات، والأنوار المتلألئة، والأحوال وجميع الأشواق الدفينة للموت أو العودة الى رحم الأم.

أصبح كل شئ كأنما يتكشف تحت ضوء الصرخة. القمر الذى صعد فى السماء. الهواء الذى يحرك سطح البركة. العرى الذى بلغ قمة اليأس. العرق المحموم بالأمل. ذكريات طفولة غامضة. غرفة مجهولة فى حياة سابقة. أزميل باحثة بلا بحث. إلهات لا وجود لهن فى أى مكان. وأشلاء صغيرة، مبعثرة، لا يمكن أن تلمها إلا قوة خارقة، تلمها وتصنع منها ذلك الشعاع الممدود من عينيها حتى سطح القمر.

- أهى نهاية العالم؟

- بل هى روح الست الطاهرة تحلق.

قالتها دون أن تفتح شفتيها. منذ إخفاقها فى الهرب أوشكت أن تنسى كل شئ. حياتها كلها عديمة الجدوى. لكن الأمر ينقلب مع انقلاب حركة العين. ترى الروح تحوم فوق سطح القمر. تدرك على الفور أن اللحظة جاءت. وقد تم اختيارها لأداء الرسالة. تشد عضلاتها وتنهض. تسرع الخطى فى الطريق. فوق كتفيها الحقيبة معلقة بالحزام. تشده بيدها كأنما تشد وجودها من العدم.

- أجل، لقد تم اختيارها وعليها أن تقود النسوة الى طريق الخلاص.

- ماذا تقولين يا أختى؟

- هناك طريق بلا شك.

- ألم تحبلى حتى الآن؟

- ليس من السهل وجود رجل قادر على الحب.

فى أعماقها كانت تحن للحب. كان للنسوة الأخريات أزواج وأطفال. تعد كل واحدة منهن أسماء أطفالها على أصابعها. عيونهن مملوءة بالزهد فى كل شئ. لم يعد لهن أمل فى الحياة، وهى ماذا حققت؟ لم تعثر على شئ. لكنها على الأقل لاتخجل من كشف وجهها، والنظر بكل عينيها الى ضوء القمر.

- ألهذا السبب لم تر الرجل فى حياتها قط؟

كان الرجل واقفا على العتبة. لم تفتح فمها وتقول شيئا. إن قالت فلم يكن بمقدوره أن يفهم، وإن فهم فإن القدر يتدخل حتما ليفرق بينهما. كانا يعيشان داخل نظام يحكمه القدر. والقدر لا يدرك من الحب إلا نوعا واحدا. تلك العاطفة الجياشة للأرض وصاحب الجلالة. ربما كان ذلك بسبب الحدود التى يفرضها النفط. قوة المد والجزر المختبئ فى المياه السوداء، قصف الريح وحركة الموج مع تدفق الشلال. كانت على يقين أن الرجل الواقف أمامها ليس هو رجل أحلامها، كلاهما كان قادمًا من نقطتين متعارضتين ليلتقيا صدفة. كأنما لم يكن يجمعهما شئ إلا القدر.



- وكانت أيضا لاتجيد الطهى، امرأة بلا قيمة تحاول أن تستقى قيمتها من قيمة الإلهات.

إنه صوت زوجها أو ربما رئيسها فى العمل، يدلى بأوصافها لرجل

البوليس. فى طريقها الى العمل قد تمر بالصدفة أمام مطبخ، تلمح رؤوس البصل متدلّية. يصيبها المنظر كأنما بطعنة خنجر. تشتهى أن تموت قبل أن تلمس شعرة من تلك الرؤوس. كانت هذه الشعرات الصفراء تظهر لها فى الحلم كأسنان كماشة، تقبض على عنقها من الخلف، وتلقى بها إلى ما وراء الموت.

- ربما كانت فى حاجة إلى إجازة.

لم يكن للمرأة أن تخرج فى إجازة. كأنما الباب إذا انفتح وخرجت فلن تعود. جاءتها فكرة الحب. حب كبير تستحق أن تموت من أجله امرأة لم تعرف الحب، نزيلة السجن الدائم. الهواء المعدوم. الدخان والذرات السوداء. الصمت وقرقعة أوراق الصحيفة. النصف الأسفل لرجل نائم، والمطبخ. أجل. قد تنبعث من المطبخ رائحة اللحم المشوى فإذا بالرجل يصحو. تستيقظ الشهوة وربما الحب. غير أن المكان هو أبدا لا يتغير. مدفوعة فيه بحكم غريزة البقاء. وجبات الأكل لانهائية، لاتكفى لإرواء الغليل. أجل، كانت هناك الورقة والآلة، دقت بأصابعها الطلب.

- هل طلبت إجازة؟

- نعم.

- هل حصلت على موافقة زوجها؟

- لا.

- هل حصلت على موافقة رئيسها فى العمل؟

- لا.

- كيف خرجت فى إجازة إذن؟

يدب الصمت فى غرفة التحقيق. يدور رجل البوليس حول نفسه داخل الكرسى. يشعل اللبنة الحمراء. يطرد الصحفيين. يدق بأصابعه فوق الآلة ثم يستدير. يحملق فى وجه زوجها ورئيسها فى العمل.

- أتريد الصراحة؟

- نعم،

- ألن يتسرب الخبر إلى الصحافة؟

- لا، بكل تأكيد!

- أجل، كانت الحاجة الى الخروج ضرورية.

- كيف؟

- خرجت تبحث عن كبرياتها الضائع. كان لها كبرياء حيوان انتصب فوق قدمين ولم يعد يزحف فوق أربعة قوائم. أجل، لم تكن هى امرأة مطبخ ولا سرير. لا تحفظ الألحان التى تغنيها النسوة فى الحمام. ولا تعرف الحب الذى ينبعث فى قلب زوجها حين يراها تحشو الكرنب. وأكثر من ذلك لم تكن رموشها تهتز حين ينظر إليها رئيسها فى العمل أو صاحب الجلالة.

تتجمد أصابع رجل البوليس فوق الآلة. يمسح كلمة صاحب الجلالة،
ويواصل الدق بيد واحدة، ويده الثانية تمسح العرق عن وجهه.
- امرأة عينها حجريتان مقطوعتان من جبل جليدى بارد.

إلى هنا توقفت أصابعه تماما وكف عن الكتابة. دار بجذعه عدة دورات
داخل الكرسي ثم ثبت فى مكانه. وجهه ناحية الحائط. لم يعرف تماما مَنْ
الذى يتكلم. رئيسها فى العمل أو زوجها. لم يحاول الاستدارة بالكرسي.
ظل يحملق فى الجدار، معطيا ظهره للرجلين.

- ماذا تعنى بهذا الجليد البارد؟!

- أعنى أنهما عينان.

- أجل.

تبادل زوجها مع رئيسها فى العمل النظرات. بدا كأنما كل منهما يحاول
أن يتخيل شكل عينيها. نفت رئيسها فى العمل الدخان كثيفا من الغليون.
هز زوجها ركبتيه ثم أسدل جفونه.

- أعنى أنهما عينان لا مباليتان، لانتظران إليك. وإن نظرت فهى نظرة
تتجاوزك الى نقطة فوق رأسك بعيدة فى الأفق.

- أكانت تتطلع الى رجل آخر؟

استدار رجل البوليس ليواجه الرجلين بنظرة قاطعة كالسيف. تطلع
أحدهما للآخر قبل الإجابة.

- لا، لم تكن تتطلع الى رجل آخر، أجل، لم تكن تتطلع الى رجل آخر،
ربما كانت عيناها لهذا السبب تستفزان الواحد منا، تود أن تصفعهما
لتنظران اليك، أجل يمكن القول أنهما عيناان وقحتان، عيناان بالرغم من
اللامبالاة بك فهما يباليان بكل شئ آخر وان كان لاشئ، مجرد نقطة
متناهية الصغر فى الأفق.

دب الصمت طويلا فى غرفة التحقيق. لم تسمع إلا أنفاس الرجال
الثلاثة تعلو وتهبط، وأزيز المروحة تدور حول نفسها، وذبابة تطن وترتطم
بضوء اللمبة، والذرات السوداء كرهاذ المطر تدق النافذة.

تسربت اليها الأصوات عبر المسافة البعيدة. ذابت كلها فى صوت واحد
بإيقاع منتظم. كان صمت رجل البوليس يدوى على نحو واضح. أدركت أنه
يعرف كل شئ. وبدأت أصابعه تدق من جديد فوق الآلة.

- أجل، ماذا عن شكل عنقها؟

- نعم عنقها، هذا ايضا غريب الشكل أطول من أى عنق، كأنما هو خط
الأفق، يرتفع كأنما عنق العنقاء، عنق لا يمكن الإمساك به لخنقه مثلا. عنق
يشير شهوتك. ذلك أنه لا يمكنك السيطرة عليه. عنق يوشك أن،

دب الصمت. كفت الاصابع عن الدق، ودار الكرسي حول نفسه ثم
توقف. لم يسمع الا صوت لهاث.

- أن ماذا؟

- أن يتبدل وينقلب الى النقيض بحركة مفاجئة، فينشئ ملتويا مستسلما كأنما يحمل من فوقه ثقلا كبيرا.

- شئ مفزع.

- أجل، لاشك أنك ترتعش أمام هذا العنق.

- وماذا عن بقية جسمها؟

- أجل، هذا أيضا مفزع.

- كيف؟

- جسمها تراه موجودا أمامك لا شك. هذا الحضور اللامتناهي لوجودها، الذي يتلاشى فجأة فيصبح غيابا كأنما الى الابد.

وانقطعت كل الأصوات تماما. لم تسمع حتى أنفاسهم الثلاثة. وربما توقفت المروحة أيضا أو انقطع التيار فجأة. واللمبة انطفأت، والذبابة طارت أو احترقت، ولم يبق إلا رذاذ المطر يدق أذنيها مع إيقاع الدقات فى شريان العنق، وصفير الريح من بعيد يشبه صمت الليل.

ثم جاءتها الضحكة عبر الظلمة. لم تعرف مَنْ من الرجال كان يضحك. ضحكة غريبة متقطعة كالنشيح، عالية النبرة تشبه صوت رجل يقهقه. يهتز جسمه مع اهتزازة رأسه بالضحك.

من وراء الكثبان وعرض البركة جاءتها القهقهة، تشبه قرقة الهواء. ترتطم بالجدران مثل رذاذ مطر متجمد. تتسرب من تحت عقب الباب مع

السرسوب الأسود. كان وجهها للحائط ورأسها ملفوف بالمنديل. بحركة من عنقها على شكل نصف دائرة أصبح وجهها ناحية الباب. كان الرجل واقفا مشمرا جلبابه. رأسه مبلل كأنما أغرقه المطر. نفض شعره وانتفض مثل ضفدعة تخرج من البركة. التقت عينها بعينه فإذا به يدير بياض عينيه بحركة الهواء ينقلب السطح ليكشف عن القاع.

- صاحبة؟

نبرته رقيقة. محكومة، تحمل حنو الرجل حين يفقد السيطرة على امرأته. خلع ملابسه بحركة من يحاول أن يخلع الإهانة. كان طويلا وجلده مبللا ومشدودا كأنما مصنوع من جلد حقيقى، يلمع فى الظلمة مثل حذاء مسح فى المطر. تقدم نحوها بخطوة من يريد إثبات أنه يمتلك شيئا لا يملكه.



- الرجال آلات لإخفاء الحقيقة، يتصورون فى أعماقهم أنهم يملكون الحقيقة.

- أيقنون هم الآلهة؟

إنه صوت امرأة تتحدث الى النسوة. يشبه صوتها حين كانت شابة. تهز كل واحدة منهن رأسها علامة الفهم.

- هذا مفهوم يا أختى، لكن رؤوس البصل لاتزال هناك فى المطبخ، لم

تلمسها يد، ويوشك موعد الأكل أن يأتى، ويصبح الرجل، هذا واضح، هل فهمت؟

- نعم، فهمت يا أختى، لكن الضفدعات تطورت وخرجت من قاع البركة الى الضوء، وأنتن النسوة عاجزات عن الحركة.

دب الصمت حين عاد الرجل. صاح كعادته طالبا الأكل. ثم رقد فى الفراش عاريا. مد ذراعه فى الظلمة تحت الغطاء، كأنما يمد يده تحت الماء. عبثا حاولت أصابعه أن تصل الى يدها. أخيرا وصلت اليها عبر المسافة البعيدة. كان وجهها للحائط. أحست قبضة يده خشنة مبللة بعرق أسود. حملتها الدوامة الى بطن الأرض. صدره متجمد مثل صدر مومياء. أجوف من الداخل، يملؤه فراغ العالم. ولا مفر. عليها أن تضع رأسها فوق هذا الصدر الحجري. كأنما هو صدر الإله إخناتون بعد أن أزالوا عنه النهدين.

- ماذا تقولين يا أختى؟

- أدركتُ بعد فوات الوقت أن كل شئ حقيقى. أعنى الزواج، وربما أيضا البحث عن الإلهات، وكل شئ آخر فى الحياة، بما فى ذلك الموت.

- والحب؟!

- لا، لم أحبه، وإن فعلت ذلك فسوف يفرق العالم فى الوهم.

كان جسدها عاريا على تماس مع العالم العارى، بكل حقيقته مثل اللحم. وكان يمكن أن تنزلق من الفراش وتهرب، لكن الخروج من ذلك البئر كان

مستحيلا، أو ربما بدا لها النفط أفضل من أى شئ آخر.

طوت ذراعها فى المكان الضيق. اختنقت بالدخان والغبار الأسود. بدا لها الموت نوعا من الخلود. والهرب من الموت ليس إلا الغباء. أجل، الموت هو عبقرية الكائن الحى حين يصبح خالدا مثل الآلهة.

تظاهرت بالموت وهى راقدة. سقط جسدها فى العمق دون أن تطوى ذراعها الثانية. كانت العتمة تشبه العين السوداء الضخمة. عين لا تكف عن النظر اليها. عين مقدسة لا تنام. لا بد أنها عين إلهة الموت سخمت، أو ربما هى عين الست الطاهرة، تنظر اليها وتذكرها بالرسالة.



فتحت عينيها فجأة. كان الرجل يحملق فيها من وراء الصحيفة. عيناه تخترقان الورق وتنفذان.

- نعم كانت تحت المراقبة الدائمة.

- بأمر من صاحب الجلالة؟

- ربما، أو ربما هو رئيسها فى العمل، أو زوجها، إستأجر رجلا يراقبها نظير مبلغ من المال. أو ربما هم الثلاثة لا أحد يعرف بالتحديد. لكن المراقبة كانت مستمرة، أربعة وعشرين ساعة فى اليوم. رجل البوليس كان معهم بطبيعة الحال، يدور بالكرسى حول نفسه، ويلق على الآلة الكاتبة:

- اجتمعت مع النسوة فى الساعة السادسة والنصف دون الحصول على

تصريح بالاجتماع، عادت الى بيتها فى الثانية إلا عشر دقائق، ساقطت المركبة وحدها دون الاعتماد على سائق رجل. كل ذلك يشكل خطورة على نظام العالم، يستوجب السجن المؤبد مع الأشغال الشاقة، وحمل الأثقال فوق رأسها. يستدعى الأمر بطبيعة الحال فصلها من العمل وطلاقها من زوجها، وإن لم تكن متزوجة يمكن لصاحب الجلالة فى هذه الحالة أن يفوض القاضى العام باصدار الحكم بالاعدام.

كان الفراش يهتز فى العتمة كلما تقلب الرجل من جنب الى جنب. يصدر عن ألواح الخشب أنين مثل قط يموء. يتشمم بأنفه رائحة الطعام. لم يكن ينبعث من المطبخ رائحة أكل. رؤوس البصل راقدة فى الحوض لا تزال. الموقد مطفاً، والوعاء الألومنيوم فارغ، يلعب قاعه تحت الضوء بوميض رمادى.

- ألم تطبخى؟!

من مؤخرة عنقها أحست نفسها مسحوبة بقوة خارج حافة الوعى. انهالت الصفعات على خديها وأنفها وشفتيها ونهديها وبطنها بلا نظام. لم تستطع أن تفتح عينها لترى ماذا يحدث. كانت المرة الأولى فى حياتها التى يضربها فيها رجل.

- ألم تصرخى طالبة النجدة؟

ربما هى واحدة من الجارات، جاءت على الصوت. لم تكن هى صرخت على الاطلاق. أو صرخت لكن صوتها لم يطلع. كانت تريد أن تخفى الأمر فى الصمت. وتركت جسمها ممدودا على الأرض. إحدى ساقيها ملفوفة

بحزام الحقيبة. عارية تماما إلا من بقايا سروالها الممزوق، يلتف حول قدمها كالخلخال. مطرز من الخوافى بإسمها وإسم زوجها داخل دائرة مغلقة على شكل القلب.

تحت الضوء الشاحب رأت فخذيهما كبيرتان ضخمتان كأنما كانت تنظر إليهما من خلال عدسة مكبرة. طويلتان ومسحوبتان بعيدا عنها، لا تكاد تراهما عبر المسافة البعيدة، كأنما هما فخذى امرأة أخرى.

وصعدت عينها فوق جسدها تتسعان مع حركة الصعود، تتوقفان، كأنما مصعوقيتين أمام رأسها المتدلى فوق العنق، مربوط بمنديل أسود، والوجه الأسمر يزداد سمرة فى الضوء المعتم، تعلوه نقط سوداء كالنمش، وخطوط كالتجاعيد مرسومة بالقلم، تهبط من زوايا الجفون الملتهبة كالدموع السوداء، والرموش ساقطة، كأنما هى انتقلت من الشباب الى الكهولة بحركة جانبية من عينها. انتفضت واقفة تشد عضلات ذراعيها وساقها. تشد أعماق عقلها الباطن من جوف الأرض. تذكرت أنها رأت هذا الوجه من قبل، وعاشت هذه اللحظة فى حياة سابقة. مشهد العقاب هذا هو الذى كانت تراه فى أحلام اليقظة والنوم.

- هذا مخجل لامرأة محترمة مثلها تبحث عن الإلهات.

وسمعت ضوتها ينتحب. أريد أن أموت من الخزي على الأقل، ثم سكنت عن النحيب فجأة. وجاء صوت يشبه صوت امرأة من النسوة.

- أجل، ما المشكلة إذن إنه يضربنى دائما وهو منتفخ بالكبرياء، لن

يطلع الصبح حتى أكون قد فتحت الباب وخرجت، نعم أعرف، سأمضى غدا، فامسحى هذه الدموع السوداء، لن ينقلب العالم لأن امرأة رقدت مع رجل غريب فى لقاء عابر.

كان صوتها يتبدل مع كل حركة من جسمها، وجسمها ينتقل من البرودة الى السخونة وهى تنقلب من جنب الى جنب. رائحتها تتضوع من عمق فيها لا يمكن لها أن تسبره. رائحة اللحم الراقد فى بطن الأرض. ربما أرادت أن تموت فى تلك اللحظة. أو ماتت فعلا، ثم مس طرف أنفها طرف أنفه وهو ينسحب من فوقها، أدركت لحظتها فقط أن جسدها موجود ولم يمت بعد.

– أكان ذلك هو الحب؟

كانت البلولة تسرى اليها من تحت الغطاء مع سرسوب النفط. كان يكفى أن ترى هذا السرسوب الأسود لتدرك أنها بلا قيمة، والرائحة من بعيد كافية لتطهيرها من الذنب. وفمها مثل مدخنة تبصق غيمة من الدخان، والأرض تميد تحت جسدها كالماء، وهى قطعة يابسة تغوص الى القاع، وترسو بقدميها فى بطن الأرض.

– إمراة ساقطة الى هذا الحد؟

– ماذا تعنى؟

– ألا تعرفين ماذا أعنى؟

– أتراقبنى؟

- أجل، لولا ذلك ما رأيتك مع الرجل الآخر.

- وانا رأيتك هل نسيت؟

- أجل، هذا طبيعى، ويعطينى الله بدل المرأة أربعة ألا تعرفين ذلك؟

كان واقفا يحيط عنقه، مملوءا بالفخر. كلما زاد عدد النسوة فى حياة الرجل يزداد عنقه طولا. كان عنقه يمتد الى ما لا نهاية، مثل خط الأفق. مشهد يرعبها أكثر من الموت. يضعها هى والرجل فى عالم يتأرجح. بيت قائم فوق الماء. ميزان تهتز كفتاه دونما عدل.

كان واقفا يتطلع الى أعلى. عيناه تبريشان. يحاول إمساك السماء بعينيه. كأنما هى الشئ الوحيد القابل للإمساك فى مساحات من الوهم.

كانت راقدة فى مكانها لا تزال. لامست بيديها خديها الملتهبتين بالصفعات. نظرت اليه بطرف عينها وهو واقف. كان بالقرب من الباب، لا يبعد عنها بضع خطوات، وبدأ بعيدا جدا كأنما هو غائب.

- كيف يمكن لرجل قريب الى هذا الحد أن ينسحب الى مسافة لا نهائية لمجرد حركة واحدة من طرف عينها؟

- أجل، هذا طبيعى، إن امرأة مثلك تتجاوز بإثمها الحدود يمكن برمشة عين أن تقلب النظام.

- أهو نظام متهالك الى هذا الحد؟

لم يكن فى طاقته أن يرد. لكن قلبه فى الباطن كان يهتز. كأنما كان

يخشى هذه اللحظة طول العمر. ما الذى يمكن أن يمحو هذا الإثم إلا أن تركع المرأة بين يديه. أن تبلل بدموعها قدميه وتطلب الغفران. أجل كلما اشتد هوانها اشتد كبرياؤه. فلا شئ ينتقص من كبرياء الرجل قدر امرأة بلا إثم يملؤها بالندم.

كان واقفا ينتظر منها الركوع أو الدموع، ولهات التوبة أو الندم. لكنها ظلت صامته صمت الموتى فى القبور. لم يفلح معها التهديد بعقاب الأرض والسماء. لم يكن أمامه إلا أن ينتظر. مهما طال الوقت ينتظر، فلا شئ يمكن أن ينقذ كبرياءه إلا انفراجة شفيتها بكلمة مثل «إغفر لى».

– أكان فى عينيه استجداء؟

أجل، نعم، وبحركة من عينيهما الملتهبتين انقلب الوضع. كأنما كانت تقلب بجفونها الصور فى كتاب. بدا فى الصورة منشيا الى أسفل، راکعا بين يديها، يبلل قدميها بدموعه، يستعطفها أن تنطق بالكلمة، «اغفر لى». أرادت أن تفتح فمها وتستغفره دون جدوى. شفتاها ملتصقتان بالنفط كالصمغ. جفونها أيضا ملتصقة كالشفيتين، ورموشها تلاصقت بعضها ببعض.

أمام عينيهما لم تر إلا الظلمة. متى تتحرك هذه السحب السوداء بعيدا وتظهر الأضواء؟ إذا كانت الأضواء قد ظهرت هناك فلماذا لا تظهر هنا؟ وإذا كان الإثم قد وقع هنا فلماذا تعرضت للعقاب هناك؟

وانفتح الباب بقوة الريح المباغتة. تدفق شلال النفط بصوت زاعق.

وانتصبت الكشبان السوداء بين الأرض والسماء. رفع الرجل ذراعه علامة اليأس. أدرك أن الفرصة ضاعت منه. وأن خواتمه ربما انكشف لعين العالم، ولا أمل في اخفاء الحقيقة.

– أكان ذلك بسبب تدفق النفط في وقت غير مناسب؟!

إنه يتكلم مع نفسه وذراعه مرفوعة. كأنما يخاطب قمم الكشبان أو قوة ما غير محددة في السماء.

– أيها النفط إذا لم تغرقها تماما حتى الموت فلن يبق في العالم شيء من كبرياء الرجل.

يبدو أن النفط استجاب لدعاء الرجل، وانهمر الشلال بقوة أكثر، والمرأة ترفس بساقيها وذراعيها تقاوم الفرق. أجل، لم يكن للنفط أن يتخلى عن طبيعته وينحاز الى المرأة. هكذا أيقن الرجل.

– ألا تعتذر عن خطيئتك يا مره؟

– حاولت لكن

– هل سبق أن حدث ذلك من قبل؟

– نعم، حدث من قبل

قالتها وعيناها تتسعان بين السماء والأرض، تبادلت مع الرجل النظر دونما إرادة. رأت في الضوء الشاحب نظرات متبادلة تهدم بقية الأمل.

أكانت لها حياة من قبل؟ لكن السؤال بدا أكبر من قوة خيالها. وأدرك الرجل أنها كانت آثمة طول الوقت منذ الولادة حتى الموت.

- آه، نعم، كنت أعرف ذلك، ما الجديد إذن؟

قال ذلك وهو يتسلق سلما عاليا الى السقف. كان سرواله المخلوع لا يزال فى الخطاف يتأرجح. ذراعه تمتد تحاول الوصول اليه، ظهره من الخلف مقوسا مثل صنم الجمل، ساقاه أيضا مقوستان يغطيهما شعر ناحل، مبللا بالعرق الأسود، يلتصق بعض البعض.

- الآن عليها أن تتخذ القرار وإلا فلن تتخذه أبدا.

هكذا بدا لها الأمر. البقاء إلى الأبد أو العودة الآن وفورا. كان هو أول قرار حاسم فى حياتها. أياكون النفط هو الذى أجبرها عليه؟ أو ربما ذكريات حياتها السابقة بدت أفضل مما كانت. وإن كان للصفحات ذكرى كالعلامات السوداء. لكن ضرب النسوة كان أمرا طبيعيا. والرجل لا يكف عن الاستعانة بالسما. تهمس له السماء من أعلى: واضربوهن. لم يكن لها أن تتوقع مستقبلا أفضل، إلا اذا تقبلت الضرب بكبرياء. وجعلت رأسها مثل رأس الإلهة سخمت مصنوعا من البرونز. وتدخل المطبخ شامخة بعنقها مثل الإلهة نفرتيتى. تقف أمام النار تبتلع الدخان فى بطنها كأنما هى بطن الأرض. تختزن الألم كأنه الحبل، ثم تتعطر من الخارج لتخفى الرائحة، وتقاوم الرغبة فى رفع ذراعها لتصفع الرجل، وتبتسم فى وجهه كالملاك.

- أكون لك وجهان يا امرأة؟

- وأنت لك الضعف، أربعة وجوه، أليس كذلك؟

كانت قوة النفط لا زالت تتدفق. تدفعها من جديد الى مالا تريد. كانت عاجزة تماما عن ادراك ماهو الحب الرفيع وما هو الحب الوضيع. منذ الطفولة أدركت أشياء هامة لا يدركها أحد. عبثا حاولت أن تبحث عما تريد البحث عنه. ولم يكن الرجل إلا عقبة في حياتها مثل كثران النفط.

- إنه رجل مثالي لا يستجيب إلا لطلب السماء بضرب النسوة.

هكذا كانت تواسى نفسها. فى أعماقها أرادت التوبة. أن تجعله يلعب دوره السماوى ويمنحها الغفران. فى اجتماع النسوة سمعت صوت المرأة الشابة. يشبه صوتها حين كانت فى عمرها إلا أنها لم تكن تخفى فمها بيدها كما كانت هى تفعل. تفتح شفيتها عن آخرهما وتبتلع الذرات السوداء كأنما هى لاشئ.

- فى غياب الحبل تلعب المرأة دور الأم، وتجعل من الرجل طفلا، فتمنحه دورا يلعب به.

لم تكن تعرف لماذا لم يرتفع بطنها. نساؤه الأربعة أيضا بلغن اليأس بلا أمل. رفعن أيديهم للسماء يطلبن الحبل. نادين على جميع الأنبياء والقديسين بالأسم. لم يستجب اليهن أحد. نادين على الست الطاهرة وغيرها من القديسات دون جدوى.

السابقة كانت له رجولة اكثر. كانت تريد أن تصرخ بكلمات محبوسة تود الخلاص منها. كلمات ينبغي أن تلفظها قبل نهاية العالم. كلمات نابية، طعمها كالغشيان، تتمم بها النسوة فى الفراش مع الرجل. وكانت الحرارة قادرة على إذابة الحياء، وتقلب الرذيلة الى فضيلة بحركة من شفتى الرجل.

- لا أريد أن يعرف أى أحد ما حدث، ذات يوم يمكننا أن ننسى كل شئ ونحتفل معا بعيد صاحب الجلالة، هاتى يدك فى يدى.

ذراعه كانت ممدودة نحوها مثل العصا الطويلة. قبل أن تمد يدها كان قد قبض عليها بأصابعه. أصابع كبيرة تغطيها البقع ونتوءات فوق الجلد بلون النشط.

فى الليل حاولت أن تحرر يدها من يده دون جدوى. وانقلبت على جنبها الآخر. أصبح وجهها للحائط.

- أجل، غدا أهرب حين يخرج الى العمل.

وهى تحلق فى الحائط سقطت فى النوم. رأت نفسها جالسة فوق الجسر تنتظر ظهور الأضواء. يدب الصمت حين تكتمل الظلمة، ثم تبدأ نقط الضوء تظهر من بعيد، تتكاثر كأنما تتوالد، بالآلاف أو الملايين، بلا عدد كالنجوم، تتجمع فى شعاع أبيض يحلق فى الأفق، يهبط فوق السطح، وتهمس الست الطاهرة فى أذنيها.

- هيه؟ ماذا فعلت حتى الآن؟ أترقدين هكذا مثل بقرة مريضة؟!

شدت جسمها من تحت الغطاء. كانت العاصفة تلقى بالغبار الأسود. سيل منهمر من السماء ومن بطن الأرض. الرجال يملأون البراميل، من بعيد تراهم فوق خط الأفق كالظلال السوداء الصغيرة، بحجم الأطفال يحركون أذرعتهم فى الهواء كأنما يلعبون، يحاولون إفراغ مياه البحر فى جرادل صغيرة، أو إفراغ السماء من الهواء فى دورق من الصفيح.

التوى عنقها تحاول النظر الى النسوة. ظل البرميل فوق رأسها ثابتا. لم تعد تسقط منه قطرة واحدة وإن حركت رأسها. كان الوصول الى النسوة يقتضى الانزلاق فوق المنحدر المغمور بطين النفط. فى منتصف الطريق توقفت. نظرت من خلال الأفق الى الكثبان السوداء، والبيوت الأكثر سوادا عند السفح، والأسطح غارقة فى الظلمة، مغطاة بالبراميل المقلوبة، وأبراج حمام أسود الريش يشبه الخفافيش، وأطراف المآذن ورؤوس المقابر كالصلبان المرفوعة. لم تكن تعرف اسم هذه القرية التى وجدت نفسها فيها بالصدفة. كانوا يسمونها مسقط الرأس، أجل، أى مسقط هذا الذى تهاوى فيه رأسها؟

رفعت النسوة أذرعهن. نزعن البراميل بحركة قوية من العنق، وانثناء من الجذع. جلسن على حافة صخرة يغطيها طحلب أسود. كانت الأرض مبللة رطبة. الصمت يدوى كصفير الريح. سطح البركة يتموج تحت الضوء الشاحب، أمواج تتعاقب وتتكوم فى الأركان مع الطحالب. والكثبان تحوط المكان كالجدران تحجز كل ما وراءها فى العالم.

كانت هى تجلس فى الوسط، كما كانت خالتها تجلس وسط النسوة.
أخرجت واحدة من جيب جليابها ورقة مطوية. كانت الحروف بالحبر الأسود
بخط زوجها، أو رئيسها فى العمل، وختم صاحب الجلالة بطبيعة الحال.
مدت النسوة أعناقهن يحاولن القراءة. بدت الحروف غريبة كأرجل
صراصير الليل الأسود.

- هذا مغزع.

- أهناك وسيلة لإنقاذها؟

- مساعدتها على الهرب؟

- آه، لكن.

عند هذه الكلمة أطبقت النسوة فى صمت. سمع صوت يشبه أنفاس
مكتومة، هواء محموم يخرج من الصدر، أو ربما هو صوت انسحاب الروح
من الجسم. وانفجرت شفتاها عما يشبه الصرخة. أجل، كلنا فى حاجة الى
الهرب، ولكن إلى اين والعالم فارغ، ومن قبل، نعم، من قبل قلت لكن
مرارا هذه الكلمة «التضامن». لكن هذه الكلمة ممنوع النطق بها، وكأننا هى
الشیطان أو إلهة الموت سخمت.

- سخماط؟

- علينا أن نصحح النطق وهذا فى يدنا لأنه لساننا الذى ننطق به.

- لن نكون جديرات بحق نأخذه من أيادى ليست أيادينا.

- وهكذا نسمح لأنفسنا بأوضاع لا ينبغي أن يقبلها الحيوان.
- ليس أمامنا إلا عدد محدد من الأشياء التي يمكن لنا أن نفعلها
بأيدينا.

- الهرب مثلاً؟

- سنهرب فوق أرجلنا، هذا واضح، فوق أرجلنا وليس أرجل غيرنا.

- وتذكرة السفر؟

- آه تذكرة!

- علينا أن نطالب بأجورنا.

هتفن في نفس واحد. أصبحت الكلمة مثل كرة من الضوء تنط من فم
الى فم، ترتطم بالظلمة كالجدار، فتعود مرتدة يحملها الهواء الى حيث الفم
لازال مفتوحا، تدخل فيه حيث كانت قبل أن تخرج، ويدب الصمت.

- ألم نطالب بأجورنا من قبل؟

- أجل من قبل.

- علينا إذن أن نكف عن المطالبة ونأخذ أجورنا بأيدينا.

- أجل، لن نكون جديرات بحق نأخذه من أيادي ليست أياديها.

وتبادلت النسوة النظرات من وراء الغطاء الأسود. هرشن رؤوسهن حيث
التهب الجلد تحت قاع البرميل. لم تتحرك عضلة واحدة في وجوهن. ولا

الشفاه انفرجت عن صوت. عيونهن تتذبذب من تحت غمامة. كانت هى تنظر الى البركة المغطاة بالغبار. الطحالب فى الأركان يجرفها التيار. تبدو البركة عميقة كالبحر أو المحيط. وأجساد ميتة ترقد فى القاع.

– أهنالك من يراقبنا؟

من وراء الثقب فى الباب كانت العين تطل. عرفته على الفور من ظهره، الصنم كان بارزا تحت الضوء الشاحب. رفعت النسوة أذرعهن بحركة واحدة قوية. عادت البراميل واستقرت داخل الحفر فوق الرؤوس. لم تعد ترى منهن إلا ظهورا مقوسة. أجسادهن صغيرة كالأطفال يتناقص حجمها بالابتعاد، ولا صوت إلا هفهة الجلايب من بعيد كحفيف الهواء.

كانت وحدها جالسة. ظلمة الليل تضعف. الظلام كالستار كان يحجبها، فإذا بالضوء يكشفها، ورأت الرجل واقفا، أدركت أنه رآها، وهى كانت من قبل رآته. واقفان متساويان فى الرؤية وطول الجسم. لم يكن لهذا الوضع المستقيم أن يحدث فى عالم غير مستقيم.

– لم يعد أمامك فرصة.

قالها بنبرة كالغضب. يحاول بالغضب أن يخفى عدم الاستقامة. إنها فرصتها الأخيرة وإن ضاعت فلا شئ بعدها. ورفعت ذراعها تحمى وجهها من الصفعة. إن لم ترفعها الآن فلن ترفعها من بعد. وإن عاشت تعيش مرفوعة الرأس. وإن ماتت تموت وهى ترفس، لا تكف عن الرفس حتى آخر نفس.

- هذه المرأة تتزف.

أجل كانت النسوة فى حاجة الى التزيف، والا فسوف يبقى العالم كما هو وينتهى كل شئ الى لا شئ. علينا أن نأخذ دم هذه المرأة الطازج وننقله الى العالم المشرف على الموت.

- أخيرا أغمضت عينيها وماتت واقفة كالشجرة.

ظلت واقفة فى مكانها، عاجزة عن الحركة. جذورها فى بطن الأرض. رأسها عاليا تطوحه الريح. أوراقها ترتعش، تنثنى ذراعيها وتلتوى كالقروع. تحاول دون جدوى التخلص من أغصانها. الهواء يحتك بها بصوت مسموع وإيقاع منتظم كالأنفاس فى النوم.

- أتعودين للنوم فى هذا القيظ؟

سألها بصوت مملوء بالغيرة. كأنما يفار من قدرتها على النوم. كان تدفق النفط يأكل الجدار، والغيرة تأكل قطعة من لحمه تحت الضلع الأعوج. ونهض واقفا ينزع عنه ملابسه كأنما يخلع عنه جلده.

- لم أعد أحتمل، وعندى رغبة

- فى الكتابة؟

- أجل

- لديك الآن هذه الآلة الجديدة ولست فى حاجة الى معرفة القراءة أو الكتابة.

- أجل، لكن صاحب الجلالة يريد مقالا فى عيد ميلاده غدا.
- أجل، يمكن للآلة الجديدة فى بضع دقائق أن تنسخ مقالك فى العام الماضى أليس كذلك؟
- أجل، نعم، إننى أعرف ذلك.
- ما الجديد إذن؟
- بغريزتها كانت تدرك كل شئ. فى أعماقها كان الخواء ينتشر. ما جدوى التظاهر إذن؟ ما من حاجة تدعو الى التخفى. ربما كان لا يزال بينهما شئ من العاطفة، بقايا حب فى حياتها السابقة. لكن الريح هبت وجرف تيار النفط كل شئ.
- وسمعت صوت رجل البوليس يدق على الآلة ويدور بالكرسى حول نفسه.
- كما ترى لقد خرجت المرأة فى إجازة.
- أجل هذه الحالات أصبحت عادية تماما، ومن كل ثلاثة من النسوة تخرج واحدة.
- أهو مرض جديد؟
- أجل، نسميه عندنا فى الطب النفسى انفصام فى الشخصية.
- قال «عندنا فى الطب النفسى» والتوى عنقه نحو السماء بزاوية حادة، واهتز الغليون المثبت فى زاوية فمه.

- أتعنى ازدواجية الشخصية؟

- لا ، فى الإزدواجية تكون المرأة والشخص الآخر اثنين متلازمين على نحو إجبارى، أما فى الانفصام فإن المرأة تصبح هى وذلك الرجل الآخر شخصا واحدا. مفهوم؟

- أجل، أعرف ذلك، والنتيجة واحدة على أى حال.

- بالطبع، لكن الازدواجية حالة طبيعية تماما، وجميع النسوة يندرجن تحت هذا النوع.

- أجل، أعرف ذلك، الا زوجاتنا طبعاً.

- بالطبع، لأن الرجل منا يختلف عن جميع الرجال. فنحن من سلالة مميزة عن البشر تمتد الى الأنبياء، الم تسمع حديث صاحب الجلالة بمناسبة عيد ميلاده١٢

- أجل، سمعته، كان خطابا تاريخيا، وقد كتبت ذلك فى مقالى فى الصحيفة ولا بد أن جلالته رآه.

- لابد أنه رأى الصور على الأقل، فإن جلالته لا يعرف القراءة كما تعرف.

- أجل، أعرف، وليس فى ذلك عيب، وكان الأنبياء جميعا لا يعرفون القراءة ومع ذلك قادوا العالم الى عصر جديد.

- أجل، أعرف ذلك، لكن جلالته يحب الصور الملونة، خاصة صورته ولا

- يمل النظر الى صورته المنشورة فى الصحف، وفوق الشاشة، أليس كذلك؟
- أجل، هذا طبيعى لرجل عظيم مثله يقودنا الى عصر النفط الجديد.
- أجل، ما العيب فى النفط؟
- لا شئ! إلا
- ألا ماذا؟
- لا شئ.
- أحس أنك تريد أن تقول شيئاً، هيا تكلم ولا تخف.
- أبدا مجرد شئ تافه، حين عدت من العمل اليوم وجدت ورقة صغيرة.
- ورقة صغيرة؟
- نعم، ورقة صغيرة فوق الكرسي بجوار السرير.
- أجل، فوق الكرسي بجوار السرير، أعرف ذلك.
- كيف عرفت؟
- دب الصمت كالموت. لم يسمع إلا صوت أزيز المروحة، وأنفاسهما تلهث.
- ثم جاء صوت أحدهما بعيدا وخافتا كأنما من بطن الأرض.
- وماذا كتبت لك فى الورقة؟
- أجل، لا شئ، مجرد أنها خرجت فى اجازة، هذا كل ما فى الأمر.
- أهذا كل ما فى الأمر؟

- نعم، هذا كل ما فى الأمر.

- أجل، أنا أيضا وجدت ورقة.

دب الصمت مرة أخرى كالموت. كف الهواء عن الحركة. المروحة أيضا
كفت عن الأزيز. أنفاسهما كأنما توقفت تماما.

حركت رأسها من فوق الوسادة. كان الرجل راقدا مفتوح العينين. فجأة
رنت الضحكة فى ظلمة الليل. أجل، كان هو الرجل الذى يضحك عن يقين
كان يضحك. ربما كان بالضحك يخفى شيئا آخر. وجهه كان ناحية الحائط
ولم تعرف فيما يفكر. لكنها حين سمعته يضحك ضحكت هى الأخرى.
وبدت الحياة أفضل مما كانت

- أجل، طالما أن لديه القدرة على الضحك فلن يكون هناك داع للهرب
على الأقل الليلة، ويمكنها مواصلة النوم، وفى الغد تبدأ محاولة جديدة.

(تمت)

رقم الإيداع ٩٢ / ٨٥١٦
I .S .B .N . 977- 208- 088 - 5



الكتاب في زمن النكاح

هذه الرواية

عن امرأة خرجت في إجازة ولم تعد ،
محظور إيوائها أو التستر عليها حسب
القانون فلم تكن النساء تخرجن في إجازة ،
وإن خرجت واحدة فهي تخرج لقضاء حاجة
ضرورية ، قبل الخروج لابد من تصريح
مكتوب من زوجها ، أو مختوم من رئيسها في
العمل .

فلماذا خرجت ؟...